

عبد الرحمن الدّاخل

صَقْرُ قُرَيش

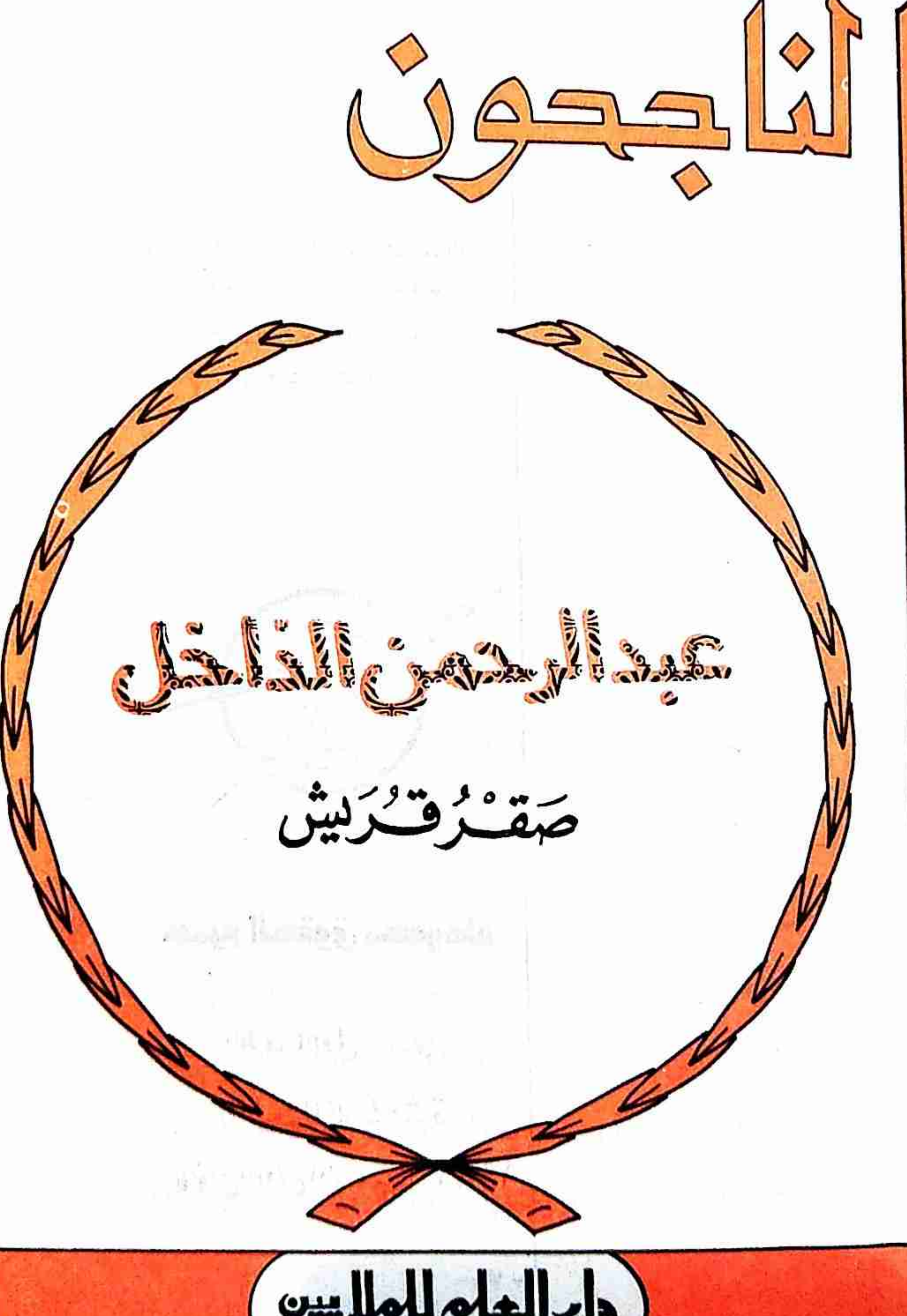
دار العِلم للمَلايين

اشتريته من معرض بغداد الدولي للكتاب
في 08 / ذو القعدة / 1442 هـ
الموافق 18 / 06 / 2021 م

سرمد حاتم شكر السامرائي

م. سرمد حاتم شكر

عبد الرحمن الداخل



الناجحون
عبد الرحمن الداخل
صَقرُ قُرَيش
دار العلم للملايين
بيروت

دار العلم للملايين

ص . ب : ١٠٨٥

تلفون : ٣٠٤٤٤٥ – ٢٢٤٥٠٢ – ٢٩١٠٢٧

بيروت – لبنان

الطبعة الأولى ١٩٧٠

الطبعة التاسعة

كانون الثاني (يناير) ١٩٧٨

١

طفولة عبد الرحمن

انبسطت مدينة الرُّصافة في بادية تَدمر ، وامتدت مبانيها الجميلة من الشمال الى الجنوب على شكل مستطيل ، ونشرت الحدائق والبساتين بساطاً أخضر حولها وكأنه سياج يحمي المدينة من لهيب الصحراء .

أما نهر الفرات السخيُّ فقد جرى رائقاً عذباً على بعد خمسة وعشرين كيلو متراً من أطرافها . لقد جاورها بماء الحياة والأُنس ، فأعجبت به المدينة وهو يجود على السهول المحيطة بها بما يخصبها ويُغنيها .. واعتزَّت مدينة الرصافة

بمقامها في هـذه البقعة من الأرض ، وكانت محطة الطريق التي تربط بين الشام والعراق .

وأعجب الخليفة الأمويّ هشام بن عبد الملك بالرصافة فجعلها مقراً لخلافته ، إذ أراد أن يكون قريباً من العراق ليتولى شأنه ، مثلمـا أراد أن يشرف على ديار الشام ، وهو يجاورها .

ولم تكن سلطة هشام بن عبد الملك تشمل هـذه البقعة وحدها وإنمـا كانت تمتد من الهند الى الأندلس . فحارب البيزنطيّـين براً وبحراً ، وبلغ جندُه سهول « بواتييه » في فرنسا .

كان هشام بن عبد الملك يتفوَّق بقوّته على أعدائه ، وإن كان يضيق بالفتن التي يقوم بهـا الهاشميون في العراق وخُراسان ، ويحاول أن يقمع كل فتنة بالعنف حين لا ينفع اللِّـين .

ومن مدينة الرُّصافة هذه كانت أوامر الخليفة تصدُر إلى الأمراء العرب الذين يتولون حكم بلاد الشام والعراق ، وخراسان ومصر والمغرب والأندلس .

وفي هـــذه المدينة الجميلة وُلد عبد الرحمن بن معاوية فعاش في قصر الخليفة هشام بن عبد الملك ، جـده ، ينعم برغيد العيش وبهجة الطفولة .

وترعرع عبد الرحمن في ظل جده هشام بعـــد أن توفي والده تاركاً شقيقين ، أحدهما أكبر منه والآخر أصغر منه .

ولم يشعر عبد الرحمن بمرارة اليتم ، وجدُّه هشام بن عبد الملك يرعاه ويحنو عليه ، ويضفي على شخصه كل ما يحتاج اليه من حنان الأب ، ودفء الأُسرة ، ونعومة العيش .

لقد رأى في جده عدالة الأمويّ ورجولته . وأدرك اتساع رقعـة الخلافة التي يدير شؤونها جده الخليفة ، وهو يسعى الى توطيد سلطته بالعدل والإنصاف .

لقد شاهده أكثر من مرة يقف على قارعة الطريق يسأل العابرين عن حاجةٍ يقضيها لهم . فأُعجب بأمير المؤمنين الذي يسعى الى أفراد رعيته ، فيجنّبهم عنـــاء الوصول اليه .

وعرف عبد الرحمن أن الخلافة الأموية التي بنى دعائمها معاويةُ بن أبي سفيان ما زالت راسخة البنيان بفضل قوَّة جدِّه ، وعلى الرغم من حقد الهاشميين الذين أرادوا هدم الكيان الأموي ليستعيدوا الخلافة التي كانوا يرون أنهم أولى بها .

لكن هشام بن عبد الملك لم يسكت عن أي تمرُّد من جانب الهاشميين ، فكان يخمد كل ثورة يفجِّرونها . فإذا تمرد الهاشميّون في الكوفة أمر جنده بقمع تمرُّدهم . وإذا عصى أمره أحد زعمائهم ، وفرَّ إلى مدينة من مدن العراق أو خراسان ، تعقّبه أنصار الخليفة حتى يتمّ القضاء عليه أو تسليمه للخليفة .

نشأ عبد الرحمن في القصر الأموي بين أَخويه وأعمامه وأبناء أعمامه ، فورث تقاليد الأُسرة الأموية ، واكتسب عاداتها وأخلاقها ، وكان يفخر بأُمويَّته التي تعتز بمجد معاوية بن أبي سفيان .

وساءه أن يكيد الهاشميون للأمويين ، وهم أولاد عم . فعاصر في طفولته أكثر من فتنة ، ورأى جده يقضي على

أعدائه ، فيُبيح القضاءَ على (زيد بن علي) الذي اعتصم في الكوفة وحشد حوله أنصاره ليقاوم أتبـــاع هشام بن عبد الملك وجنده . وذات يوم بينما كان عبد الرحمن في مجلس جده جاء رسول الى أمير المؤمنين يُعْلمه عن إخماد ثورة الكوفة . وقال له :

ـ لقد مات زيد بن علي ، قضى عليـــه أمير العراق يوسف بن عمر الثَّقَـفي بعد معركة عنيفة،وأُخمدت الفتنة، ولم يبقَ منها إلا الرماد .

وسمع عبد الرحمن جدَّه يقول للرسول :

ـ أبلغْ عامِلَ العراق أن يضرب ولا يرحم. فمن يريد لنا الشر ، لا نريـد له الخير . وليكن على أعدائنـا ، كما كان الحَـجّـاج بن يوسف ، نقمةً وشدة ، وليعلم القومُ أن الأمويين يعزُّون من يعزُّهم ويحطمون من يَعْصيهم .

أدرك عبد الرحمن في طفولته ذلك الحقد الذي يملأ صدور الأمويين على الهاشميين ، والهاشميين على الأمويين ، وهو يعيش في كنف جده . وما كان هشام يريد الشر لأبناء العم ، وقـــد دانت له أكثر من قارّة . لكن الخلاف الذي

نشب بين هاتين الأُسرتين جُبل بالدم ، فلم يعدْ من اليسير إزالته .

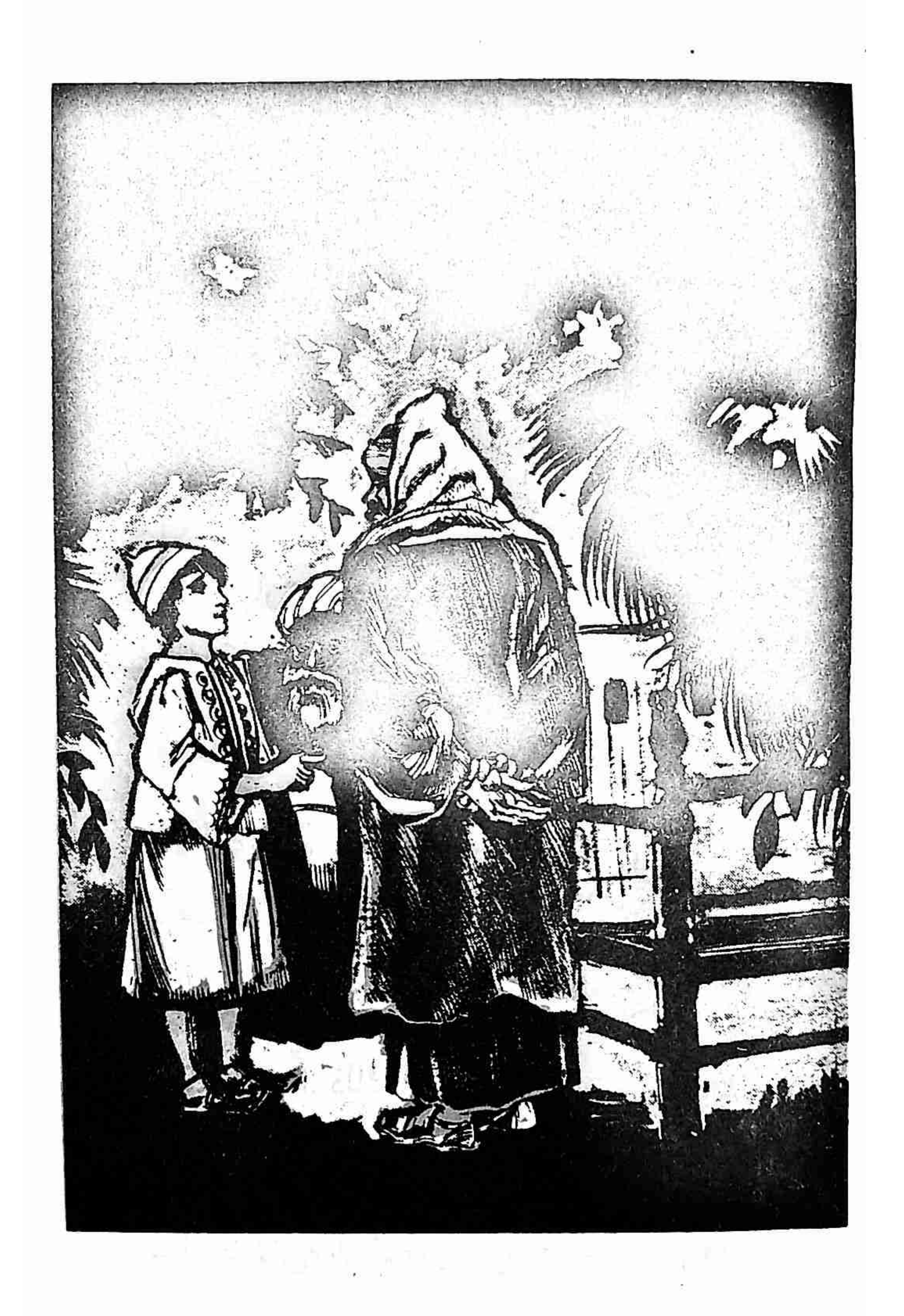
وكان عبد الرحمن يسمع كل ما يحاك ضد الأمويين ، وأتباع جده يأتونه بالأخبار كل يوم . فالرصافة التي هي مقرُّ أمير المؤمنين استاءت من أنباء الصراع الدامي الذي دار في كربلاء ، وبعدها في الكوفة ، وخراسان ، والمغرب .

ولم يكن أمام هشام بن عبد الملك من شاغلٍ سوى هذه الاضطرابات التي عكَّرت عليه هناء العيش ، وجعلته يهتم بالفتن الداخلية أكثر من اهتمامه بالشؤون الخارجية ، ولا سيما فتْح البلاد الجديدة .

وفي يوم من أيام الربيع ، بينما كان عبد الرحمنٍ يلعب مع أبناء أعمامه وإخوته في الحديقة ، أقبل عليه جده هشام برفقة أخيه مَسْلَمة ، وأمسك بيده يلاعبه. فقال مسلمة :

ـ هذا هو يا هشام .

فاضطرب هشام وقد عرف ما عنى أخوه بقوله . لكنه أجابه :



هشام ومسلمة يتسارّان نبوءة عن عبد الرحمن

- إن نَواتَنا الصلبة أقوى من الفنـــاء يا مسلمة . لن يتمكّـن الهاشميون من القضاء على الأمويين .

فَصَمَتَ مسلمة ، ولم يرغب في أن يضاعف التشاؤم الذي تنبأ بـــه لأخيه ، وتابع نزهته في الحديقة برفقته . يومذاك ظلّ عبدالرحمن يلهو مع أقرانه، وهو لا يعلم من دنياه سوى هذه الدعابةِ التي نطق بها عم والده .

لم تكن العبارة مجرد مداعبةٍ للطفل،وإنما خاتمةً لتخمين الغيب الذي كان يتحدث به مسلمة .

وقد قال لأخيه هشام :

- لا أرى هذه الدولة راسخة البنيان . لم يبقَ فيها من رجاء يا هشام !

فسأله أخوه هشام :

- كيف تقدّر ذلك يا مسلمة ؟

وأجابه شقيقه :

- لن تنطفىء نار الأمويين في زمنك يا هشام،وستظلُّ

مشتعلة بعدك ، ولكن إلى حين . ثم تنتقل الخلافة الى أبناء أعمامنا الهاشميين .

حينئذ سأله هشام :

ـ وماذا يحلّ بنا نحن الأمويين عند ذاك ؟

تأوّه مسلمة قبل أن يجيب ، ثم قال :

ـ نحن ! ماذا يصيبنا وقد تسنّم الهاشميون مقعد الخلافة؟ أرى يا هشام الدمَ يتجمع في بحيرة، وقد قضى آل هاشم على الأمويين . سينتقم الهاشميون منا . ولن يدوم لنا الزمن .. ويفرُّ واحدٌ من الدم ليُعيد المجد المفقود ، ويرفعَ علَم الأمويين من جديد، ثم يشيد دولة تضاهي دولتنا في المشرق.

« وسيكون الهارب من الدم عبدَ الرحمن ، هذا الذي يلعب الآن في حديقة القصر يا هشام . أما سائر بني أُمية فستصيبهم الكارثة » .

غضب هشام من نبوءة أخيه ، وكفر بعلم الغيب ، ورفض أن يصدّق أن الدولة الأموية ذات المجد الزاهر ، والاطراف المترامية ، ستتهدم قريباً بسيوف الهاشميين .

٢

من الرصافة الى دمشق

أبى هشام بن عبد الملك أن يصدّق قول أخيه مع ثقته بأن مسلمة لم ينطق إلا بما يعلم ، وبمـــا يستوحي من عالم الغيب ، لكنَّ ما يُفْصِح به هـذه المرّة رهيب وشديد الرهبة . كيف يقبل هشام أن تزول دولة الأمويين ، وهي بهـــذه القوة والبأس والمجـد ؟ هل يعتبر علم الغيب مجرد خرافة وهراء ؟

أمن المعقول أن تتقوَّض دعائم الدولة التي قامت على العدل ، بسبب حقد الهاشميين ؟ لا ، لا وألف لا .

وانطلق خيال الخليفة الأُموي من الرصافة الى أنحـاء

دولته ، فهي تمتـــد في ثلاث قارّات ، في آسيا وافريقيا وأوروبا. والولاة الذين يسوسون الشعوب في هذه القارّات يعتزّون بالراية الأموية ويفخرون بعدلها ومجدها . ولا يعكر صَفْوَهم إلا ما يجري في بعض مدن العراق من إقلاقٍ للأمن ، يقوم به بعض الهاشميين .

وخرج أمير المؤمنين إلى حديقة قصره . أراد أن ينظر إلى جمـــال الأشجار ، وهو يفكّـر بمجد الأمويين ونكبات الهاشميين .

كان يتمنى الدوام والخلود لهـذا المجـد . لكن الخوف يزعزعه الآن بعد أن تنبأ أخوه بما تنبأ ، وهو الذي برع في علم الغيب . فهل يعني هذا أن الـكارثة ستحلّ بالأمويين ؟

أليس من سبيل لاتّـقاء شرِّها ؟

كم تمنى هشام بن عبد الملك أن يجمع شمل الهاشميين ! وأن يتظاهر نحوهم بالمحبة والإخلاص . وحدَّث نفسه : « ولكنّ مطامعهم تابى أن يكونوا مؤيِّـدين لي ومخلصين للدولة الأموية . عزمتُ أن أُحسن معاملتهم ، فحاولوا الغدر بي . حاولتُ فيهم دهاء معاوية ، جدّ هذه الخلافـة ،

فلم أفلح . ثم اعتمدتُ بطش يزيدَ لأُخيف كل من يغدر بالأمويين ، فلم أفلح أيضاً ! » .

كانت الدسائس تحاك دائماً حول الخلافة ، حتى وجد هشام أن بعض الأمويين ينقَم عليه ، لأنـــه يحسده على منصب الخلافة . وما أكثر الطامعين في الخلافة !!

واتّـقى أمير المؤمنين شر أعدائه،وغدرهم وخيانتهم . فـكان حذِراً ، شديد اليقظة . وقد فتح عينيه ، وأكثرَ من أنصاره بين من ينقم عليه ليأتوه بأخبـــار المكائد والدسائس . لكنه آمن بانقلاب الزمن . إذ ليس ليوم العزّ أن يدوم مهما طال نهاره !

وأصرّ هشامُ على حمـاية الدولة الأموية من أعدائها في الخارج والداخل . وفضّـل العين الساهرة القلقة على العين النائمة التي يضحك منها الحسّـاد والشامتون . وانتفض من شروده ، وهو يجول في حديقته : لا ، لا ، ستبقى دولة بني أمية ، ولن أنام ساعة واحدة عن كل من يخاصمني . سأبطش ، وأبطش . إنّ الدفاع عن النفس حقٌ وعدل .

والخلافـــة لنا . وسيكون مصير كل عدوٍّ ما أصاب زيدَ بن علي .

وبقي أمير المؤمنين منيعاً على أعدائه ، وعاش بقيـة حياته يوسِّع أطراف الدولة الأموية ، وينفخ فيهـــا من روحه ، و يرهِب كل من يحـاول التمرّد . وتوفي هشام بن عبد الملك في عام ٧٤٣ م ، ودفن في الرّصافة ، فسميت على أثر ذلك « رُصافة هشام » .

وقفز الزمن عشر سنوات ، تولى خلالهـــا الوليدُ بن يزيد الخلافة ، ثم يزيدُ الناقص ، وآلت أخيراً إلى مروان ابن محمد الجَعديّ .

عادت دمشق عاصمـــة الأمويين وكانت حَرَّانُ مقر الخلافة . وبقي الحقد يملأ صدور الهاشميين . لقد أقسم سادتهم أن ينتقموا من الأمويين شر انتقام . وكان الانقسام بين اليَمنيِّين والقيْسيّين مستمراً . فإذا عطف أمير المؤمنين على القيسيِّين لقي الكراهيةَ من اليمنيين . وإذا

أطفأ ناراً في خراسان،تلظَّت الفتنة في المغرب، واشتعلت النار في شمال إفريقيا .

لقد بـدأ سرير الخلافة الأنيق يهتزُّ بدعائمه ، والدولة الأموية تعاني ضعفاً في جسدها . فالدماء التي أُريقت قـد ولَّـدت أحقاداً تطالب بالانتقام ، وتلحّ على الثأر .

نظر الخليفة مروان الجعديّ إلى هذه الدولة التي بدأت تقترب من شفير الهاوية فتألم أشد الألم ، وعزم على دعمها ، ومداواة ضعفها .

وكان مروان جريئاً مدبِّـراً ، اشتهر بسيطرة عقله على عواطفه، وبصبره على المكاره والمصاعب . لكن الخلافة الموروثة انتقلت إليه مفكَّـكة الأوصال ، وواهنـة القوى . فإذا داوى جرحاً نزف جرح آخر . فما نجـــا من فتنة « الحَـرُوريّ » في العراق حتى هبَّـت عليه عاصفة « نعيم ابن ثابت الجُـذامي » في الأردن ، فقضى على الجذامي ، وأنذر أبا مسلمٍ في خراسان .

وكان الهاشميون يثيرون النّـقمة في كل ناحيـــة من نواحي الدولة . وساعدهم في ذلك نفر من الأمويين الذين

كانوا يدّعونَ حقَّهم بالخلافة .. فكان سليمان بن هشام بن عبد الملك في طليعة الأمويين الذين قاوموا مروان بن محمد. ولم يرضَ سليمان هذا عن مروان لارتقائه سدّة الخلافة ، فرفض مبايعته وجاهره بالعداوة .

وتألم مروان من هذه العداوة . وخشي قوة أبي مسلم الخراساني الذي آلمه أن يستلَّ الأمويون الخلافة من أهل البيت . وكان يعتقد أن الهاشميين أحقُّ بها ، وهم أبناء عم الرسول ، وأهل بيته .

عزم الكارهون أن يعيدوا الخلافة إلى أصحابها . وأراد أبو مسلم الخراساني أن يضع حداً لتفوُّق العرب على الفُرس . فالمسلمون سَواسية كأسنان المشط ، لا فضلَ لعربي على أعجمي إلا بالتقوى . أما الأُمويون فكانوا لا يسعون إلى تسليم مناصب الدولة إلى غير العرب ، إذ كانوا يخافون أن تنهار الدولة العربية إذا انتقلت فيها المناصب الحكومية إلى هؤلاء .

وكتب والي خراسان إلى الخليفة مروان يحذّره من أبي مسلم قائلاً :

« ... مما علمت يا أمير المؤمنين أن الرسل يغْدون ويروحون بين خراسان والبَلقاء على بعد رمية حجرٍ من مقر الخليفة ، وأن أبا مسلمٍ يكاتب إبراهيم الإمام ، ويقصُّ عليه حديث الثورة المتحضِّرة للنشوب، وإبراهيم يحرّضه على تفجيرها . وما إبراهيم إلا ركن الدعوة الهاشمية ، وأكثر الحاقدين نقمة . فإذا استطاع أمير المؤمنين انتزاع هذه النَّصلة المستقرَّة في جانبه هَدَم حجر الزاوية لبنيان الخصوم » .

وأجـاب الخليفة مروان عامله في خراسان بقوله : تدبَّر الأمر بما لا ينقلب وبالاً علينا .

وعزم الخليفة على مراقبة إبراهيم الإمام الذي كان يقيم في البلقاء (من الأردن) ، فامر رجاله أن يقبضوا على الرسل الذين يأتون من خراسان إلى البلقاء ، ليستدرجهم ويعرف حقيقة الأمر .

وقضى مروان أيامه بعيداً عن البسمة والفرحة ، وهو يريد توطيد الخلافة مهما كان الثمن . وكلّما سمع نبأً عن تململ أعدائه قال :

ـ واللهِ لن أنام إلا وقد قضيت على عدوّي بسنان الرمح .

وما كان مروان بالرجل الذي يلهو عن واجبه أو ينسى همومَه في لحظة من لحظات يقظته . لكن هذا الجدّ لم يكن نافعاً ، وقد كثر أعداء الأمويين وجاهرهم الهاشميون بالعداوة ، واستعدّوا للثورة .

وكان الدم المراق قد أثقل النفوس بالحقد ، وهزّ أوتار طلاّب الثأر . وما يجدي مروان إن استلَّ رمحه أو حكَّم عقله ؟

صمّم الهاشميون على انتزاع الخلافة من الأمويين . وهذا الانتزاع لن يكون إلا بحرب ضَروس تقضي على كل شيء .

وبدأ الخليفة الأمويُّ يقاومهم بإضعاف نفوذهم ، وإكثار مريديه . لكن الوقت لم يسمح له .. فقد ورث مع الخلافة كره الناس للأمويين . إن هؤلاء الذين يجاهرونه بالعداء لم يتجرّأوا في عهد الخليفة هشام على إعلان عصيانهم. فهل يكون مروان أضعف من هشام ؟

لا ، لم يكن مروان ضعيفاً ، وإنما كان يعيش في بداية انقلاب الزمن . لقــد بدأ الزمن ينقلب على الأمويين ، وانقضى يومهم العزيز ، المجيــد ، وبدأ الليل يخيّم على نهارهم الناصع .

ليس أمامه من مفرٍّ سوى المقاومــة والصمود ، فَلْتُرَقِ الدماءُ ، وتنعم الأرض بالضحايا مــا دام الهاشميون يسعون إلى الحرب بين أبناء العم .

٣

الامام السجين

أخفقت الجهود التي بذلها مروان بن محمد إخفاقاً تاماً . لقــد سعى الى تثبيت الدولة الأموية فلم يفلح . وبدأت الزلزلة تهزّ بنيانها : فخُراسان تلتفُّ كلها حول أبي مسلم، وإبراهيم الإمام يحمـل بيده مفتاح الثورة . فهو إذا دعا الهاشميين للقتال لا يبقى هاشميٌّ واحد في شرق العراق وجنوب الجزيرة إلا ويلبّي نداءه .

واشتد سخط الخليفة الأموي مروان بن محمد على أبي مسلم ، فقال لرُسله الذين كلَّفهم بالقبض على من يبعثه أبو مسلم إلى إبراهيم الإمام :

ـ سأنطلق بنفسي إلى الفتنة لأقضي عليهـــا وأحمي دولتي . إنمـــا يجب أن أتاكد من حقيقة الدّسيسة التي يدبّـرها أبو مسلم .

وما هي إلا بضعة أيام حتى عـاد الرجال الذين كلّـفهم بكشف الحقيقة . كانوا أربعة . وتذكّـر مروان أن عـدد الذين كلّـفهم بتلك المهمة ثلاثة .

دخلوا مجلسه وحيّـوا أمير المؤمنين . فتطلّـع إليهم مروان ، واستبشر من منظرهم أنهم وفّـقوا في مهمتهم . ثم سألهم :

ـ هل قبضتم على رسول أبي مسلم ؟

وأشار أحدهم إلى رابه بهم وقال :

ـ هذا هو يا أمير المؤمنين !

فتحرّك مروان على سرير الخلافة ، وحدّق بالرجل غاضباً وقال :

ـ أين الكتاب الذي تحمله إلى ابراهيم الإمام ؟

وأزاح الرجلُ عباءته واستلّ من صدره صحيفةً

مطوية ألقاها بين يدي الخليفة . فبسط مروان الرسالة بعجَلة وراح يقرأ ما فيها :

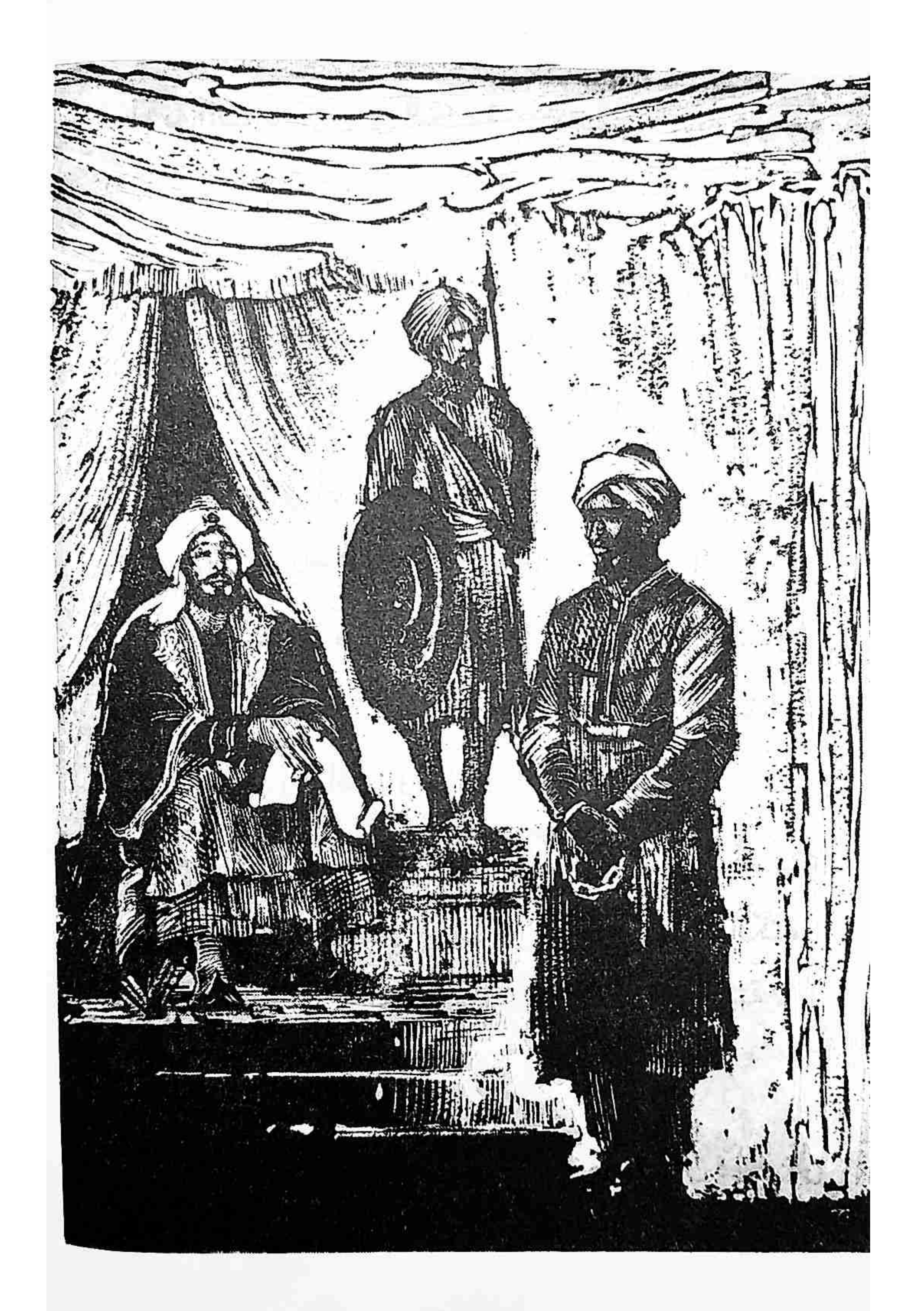
« إلى أمير المؤمنين إبراهيم الإمام ، ابن عم الرسول ، من أبي مسلم الخراساني المؤمن بالله وبرسوله » .

« السلام عليك يا مولاي . أدار المسلمون في بلاد فارسَ الرأيَ في أصلحنا للخلافة ، فوقعوا عليك . ولقد نشرنا الدعوة باسمك ، وأوشكنا أن نكشف الرماد عن الجمر . غير أننا نرقَب كلمتك وهي عندنا الكلمة الفَصل . فإذا رأيتَ أن نضرم الفتنة أشعلنا نارها ، وإلا انتظرنا حتى تأمر في إشعالها . والاتكال على الله » .

احمرَّت عينا مروان ، واصفرَّ وجهه خوفاً . لقد شعر أنه يقبض على أفعى سامّة . إذا صحَّ ما في الكتاب فهو يعني أن أبا مسلم يفاوض إبراهيم الإمام على الفتنة .

وهزّ رأسه قائلاً :

– أرى أبا مسلم يتنمَّر . لقد استأسد . نحن وإياه على موعد للحساب العسير .



مروان وفي حضرته رسول أبي مسلم

والتفت إلى رسول الخراساني وقـــال : « ممن أنت يا أخا العرب ؟ » فارتجف الرسول ومروان يخاطبه . وأحس كأن حـــد السيف يتغلغل في عنقه . ثم أجاب بصوت خافت :

ـ أنا من أخوالك ، قبيلة قضاعة يا أمير المؤمنين .

ابتسم مروان ابتسامة قاتمة وقال :

ـ نِعْـمَ من تنتمي إليهم! فماذا أتى بك الينا يا خالي ؟

وأطرق الرسول رأسه . وتابع الخليفة يقول :

ـ لا تخفْ . هاتِ كل ما عندك . إن حِلْـمنا يفوق غضبنا .

عند ذلك شعر الرسول ببعض الأمان، وقال متلعثماً :

ـ أنا رسول أبي مسلم الخراساني إلى إبراهيم الإمام يا أمير المؤمنين .

فضحك مروان ضحكة الغضب وقال :

ـ أنت من أخوالنا ورسول أعدائنا ؟!

فأجاب الرسول وقد خشي من الموت :

ـ ليس الرسول من تُلقى عليه مسؤولية الرسالة يا أمير المؤمنين .

فأجابه الخليفة :

ـ صدقتَ يا هذا ، وهذه الحقيقة تهيب بنا إلى العفو عنك ، على أن تُعْلمني عن مقدار ما أعطاك أبو مسلم .

شعر الرسول بالراحة والطمأنينة . لقد سمع كلمة العفو ، ولم يعد يخشى على نفسه شيئاً . فنطق بالواقع :

ـ لقد أغراني مقابلَ ألف درهم . وتقاضيتُ المال ، وأنا ربُّ عائلة، وشمّرت عن ساعدي مستعيناً بالله .

قلب مروان شفتيه مستخفّاً ، وقال :

ـ أتبيع حياتك من أجل الف درهم ؟ ما رأيك لو أعطيتك عشرة أضعاف هذا المبلغ ؟!

انبسطت ملامح الرسول ، وكاد يختنق من أثر ما يسمع . وأجابَ :

ـ إنها لَمنحةُ خليفةٍ يا مولاي . لكنني لا أستحقّها . فماذا أستطيع عمله لأخدم أمير المؤمنين ؟

وعلى هذا ردَّ مروان :

ـ لن نطلب منك مستحيلاً . كل ما ندعوك اليه أن تتابع طريقك وتسلّم الرسالة إلى إبراهيم الإمام ، ثم تعود إلينا بجوابه .

فاشتد خوف الرسول : إن أمير المؤمنين يكلّفه بما يفوق طاقته ، ويخشى عاقبته .

وأسرع مروان إلى دعوة خازن مالِهِ وَجلاّده . وأمرهما بالوقوف إلى جانِبيَ الرسول .

ـ عليك أن تختار يا خالي : إما المال وإما السيف !!

تطلّع الرسول إلى السيف اللامعِ النَّصلة فخفق قلبه خوفاً ، ونقل ناظرَيه إلى المال يتوهَّج في يدي الخازن فزال عنه الخوف ، وحلّ مكانه الطمع . ثم قال :

ـ إن موتي في رضى أمير المؤمنين أحبُّ إليَّ من الحياة وهو ساخط عليّ .

ابتسم الخليفة وقد سرَّه هذا القول وقال :

ـ ما أبرَعك في تخلُّصك يا ابن قضاعة ؟

ثم نظر إلى خازن ماله ، وقال له :

ـ أعطه المال .

وأُطلق الرسول إلى حيث يقيم ابراهيم الإمام، وكتاب أبي مسلم في يمينه . وأوكل به مروان رجاله الثلاثة يتبعونه في مسيره ، ويعودون به .

ولقي الرسول ابراهيم الإمام في مسجد الحميمة (جنوب البحر الميت) فقدَّم له كتاب أبي مسلم ، وهنأه بالخلافة . فقال ابراهيم الإمامُ بعد أن اطَّلع على مضمون الرسالة :

ـ الحمد لله أولاً وآخراً . حقَّ الحقُّ وزهق الباطل . شاء الأمويون اغتصاب حقنا فنصرتْنا عليهم يمينُ الله .

وأكرم الرسولَ وجاد عليه بالعطاء . واستوضح منه عن الحالة في خراسان ، وفي العراق . فتحدث الرسول بإسهاب عن دعوة أبي مسلم إلى الثورة ، وإيمان الشعب بهذه الدعوة بعد أن كره العدوانَ الأموي . فابتهج ابراهيم الإمام . وكتب إلى الخراساني يقول :

« أنا لهذه الأمة على ما تريد مني . وما الخلافة غير تراثٍ هاشمي تسلسل إلينا من الرسول الأمين . هذه

يميني أمدّها إليكم . إنهضوا لتقويض الباطـل تجدونِي في طليعة المجاهدين » .

وصلت الرسالة إلى مروانِ فأثقلت صدره ، وأقلقت نفسه. فكتب إلى عامله في البلقاء يأمره بالقبض على إبراهيم الإمام . وأغـار الجند على إبراهيم ، المعتكف على الصلاة ، فايقن أنه هالك .

والتفت إليهم ، وهم يحيطون به . وكان يعتقد أنهم سيقتلونه . لكنّـهم شدُّوا وثاقه ، وقادوه إلى حرّان حيث كان مروان يقيم في قصر الخلافة .

ولما مثُـل أمام الخليفة قال له مروان :

ــ لم تجدوا يا إبراهيم غير الإساءة لنا بدل إكرامنا لكم . كلّـما أحسنّـا معاملتكم غدرتم بنـــا ، وأكرهتمونا على مُخاشنَـتكم كأنكم تُبيحون لنا دمكم ، ثم تلوموننا . ها أنت تعيش في الحميمة مصون الجـانب .. فماذا يسوقك إلى التواطؤ مع أبي مسلم على العصيان ؟

أنكر إبراهيم الإمام ما نُسب إليه ، وقال بلهجة اللّـين يخاطب مروان بن محمد :

ـ نصرَ الله أمير المؤمنين ، وأذلّ أعـــداءه . ما لي ولأبي مسلم ، وأنا منقطعٌ إلى عبادة ربي، زاهد في دنياي! وما لي وللعصيان أنفخ في ناره ؟

فسأله الخليفة :

ـ أليسَ بينك وبين الخراسانيّ صلة أو مكاتبة ؟

ـ لا يا أمير المؤمنين . ليس بيني وبينه شيء .

عندئذٍ صرخ الخليفة به :

ـ عجباً منكم يا معشر الهاشميين . لقـد كنتُـم ذوي صدق وجرأة . كم تمنَّيت أن أسمع منك الاعتراف بمفاوضة أبي مسلم . لكنّـك جبُـنت وتخاذلت .

وأجابه إبراهيم :

ـ نحن لا نكذب يا أمير المؤمنين .

فقاطعه مروان بن محمد :

ـ لكنك تنكر الحقيقة . هـذه رسالتك إلى أبي مسلم الخراساني .

وضرب الرسالة بوجهه . فلم يضطرب إبراهيم ، وظل على إنكاره ورباطة جاشه . وفتح الرسالة المطوية وقرأها مطيعاً أمر الخليفة . ثم قال منكراً :

ـ لستُ ممن يكتب رسالة تدعو إلى فتنة بين المسلمين.

واستدعى الخليفةُ رسولَ أبي مسلم ، فاضطرب إبراهيم ، وهو يرى أن الرسول في قبضة مروان . ولزم الصمت . فلم يفلح الخليفة في استنطاقه .

وحدَّق بـــه مروان مزدرياً . وتمنى قتلة .. لكنه أحجم عن إراقة دمه لئلا يصبّ النار على الزيت، إذ يكفي الدولةَ الأموية ما استباحت من أعنـــاق الهاشميين مقابل نقمتهم عليها . وصاح بجنده :

ـ أقفِلوا عليه باب السجن . إن من ينكر ما فعلتْ يداه لا يستحق شرف السيف أن يقطع عنقه .

٤

الى الثورة

انتشر نبأ اعتقال إبراهيم الإمام بين الهاشميين ، وكان إبراهيم هذا هو الذي ادّعى الهاشميون أنه وارث الخلافة عن أبيه وصاحبُ الحق في تولّيها . فغضبوا وهدَّدوا لمّا علموا أنه اعتقل في المسجد .

واحتشد زعماء الهاشميين عند عبد الله بن علي ، وبدأوا يعدّون العدَّة للثورة .

وكان عبد الله بن علي أشدَّهم عنفاً ، وأشجعهم وأسبقهم إلى خوض المعارك ، وأعلمهم بتنظيم الصفوف .

وقد امتلأ صدره بالحقد على الأمويين ، وسعى مدة طويلة للوصول إلى مثل هذه الساعة .

فخطب بهم ، والدم يفور من عينيه ، والرغبة في الانتقام تبدو في كلماته :

- إن عيونكم لم تبصر ما أبصرتْ عيناي . لقد تراءى لي بنو هاشم كالنعاج تُساق إلى المسلخ . وقد عاهدتُ نفسي أن أنتقم للرؤوس التي فُصلت . نحن أحفاد الرسول .. فإلى متى هذا الخنوع يا بني هاشم ! تنزل بنا الطعنةُ إثر الطعنة ، ونحن كالأخشاب ؟ واللهِ لا أرضى نفسي هاشمياً إذا أطعت صبري في هذا الظلم ، وقبلتُ السكوت عنه ..

وتابع يوجّه حديثه إلى صالح الذي حضر الاجتماع :

- أترضى يا أبا العبّاس عن هذا الاستخفاف بمكانة الهاشميين ! وأخوك إبراهيم ملقىً في دهاليز مروان يعاني الإهانة والإرهاب ؟ إن إبراهيم إمامُنا ورايتنا يوم الثأر .. ومروان ينتظر الفرصة ليفتك به . وهو إذا صبر عليه الآن ، فصبرُه يعني خوفه من انهيار الدولة الأموية .

كان أبو العبّاس في شرخ شبابه . وقد جاء إلى الكوفة ليحضر الاجتماع في دار عبد الله بن علي . وصحِبه أخوه أبو جعفر المنصور. فتولاهما الغضب. وصاح أبو العبّاس:

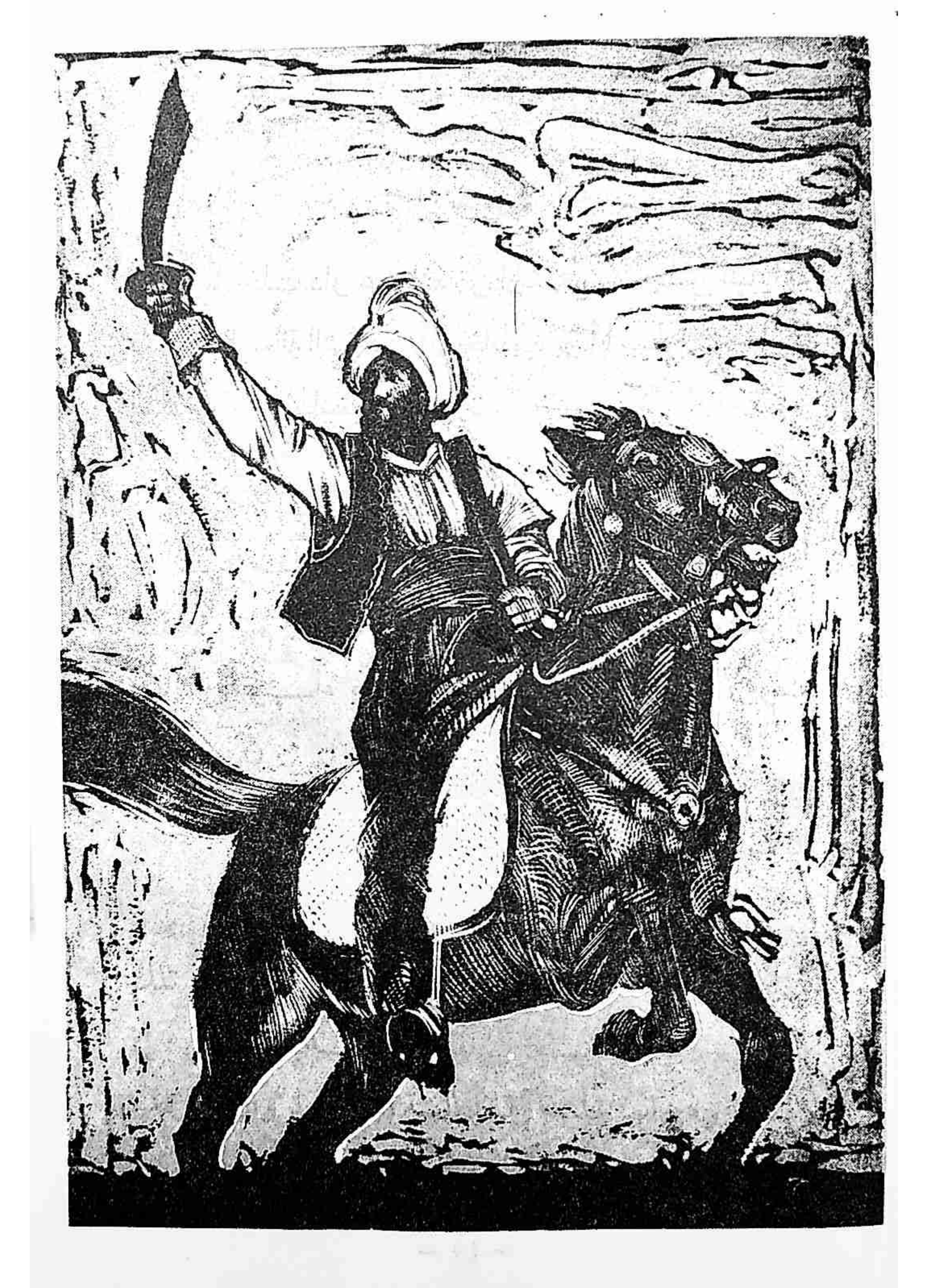
ـ بِتْنا في ظلِّ الأمويين مذلّة لا يُسكت عليها . كأننا لها أهداف .. فلا يعلو فينا ذو همة حتى يقضيَ عليه الأمويون . وإذا راعهم سعيُنا إلى الخلافة ، فالخلافة حق من حقوقنا ، ونحن أبناء عمِّ الرسول . وقد سلَبنَا هذا الحق الحسدُ والعدوان .

وأردف عبد الله يقول :

ـ نريدك أن تعلن الثورة . لقد حان موعدها . نحن نشعلها في العراق ، وأبو مسلم يفجِّرها في خراسان . قم وادعُنا اليها لنفتك بالأمويين ، ونحن طَوْع يديك .

أجاب أبو العباس :

ـ نِعمَ الرأيُ يا عبد الله . إنني أشتهي الثورة وأسعى اليها ، ويسرّني أن تفكّروا مثلي . فإلى الثورة ، الى الثورة ! إبعثوا الى خراسان رسولاً .



رسول الثورة في خراسان

وردَّدت أصوات الهاشميين المجتمعين :

« الثورةَ ، الثورة يا بني هاشم ! »

ولما خلت دار عبد الله من المجتمعين ، جلس عبد الله يفكِّر بالرسالة التي يريد أن يخاطب بها أبا مسلم الخراسانيَّ ليبلِّغه قرار الهاشميين بالثورة .

وهو يردِّد بينه وبين نفسه :

ـ عزمْنا على إفنائهم . قرَّرنا أن نبيدهم . إن ثورتنا ستذهب بهم جميعاً .. فالثعبان سليل الأفعى . والثورة إفناءٌ وإحياء معاً : يعيش أصحاب الحق ، ويموت المغتصبون .

٥

أموي يتآمر على أموي

كان سليمان بن هشام بن عبد الملك ، عمُّ عبد الرحمن بن معاوية ، يقيم في الرصافة ، موطن أبيه الخليفة الأموي . وهو يتذكّر المجد الذي عاشته هذه المدينة في ظل الأموي العظيم الباس ، ويُنكر حرمانه من الخلافة .

وذات ليلة جاءه عبد الرحمن بن معاوية في زيارةٍ مفاجئة . فاستغرب سليمان قدوم ابن أخيه في مثل تلك الليلة المظلمة . ولم يستغرب طَرقه الباب في الليل ، إذ اعتاد ، وهو ابن خليفة وقائد الفئة المناوئة لمروان بن محمد ، أن يستقبل مريديه وأنصارَه في النهار والليل .

والحقيقة أن أسرة سليمان بن هشام كانت تقيم في الرصافة ، أما هو فيقيم في أكثر من مكان .. لأن أمير المؤمنين يراقبه بجواسيسه خشية أن يشجّع على الثورة ضده . وكان يشبه في ذلك عبد الله بن علي الذي يقيم في دارَين : واحدة في الكوفة ، والأخرى على ضفاف الفرات ليتسقَّط أخبار الأمويين .

رحَّب سليمان بابن أخيه ، وساله بإلحاح :

ـ ما وراءك من أخبار يا عبد الرحمن ؟

فاجابه عبد الرحمن :

ـ بطشَ الخليفة مروان بابراهيم الإمام .

فساله سليمان ملحّاً :

ـ هل قتله ؟..

فاجاب عبد الرحمن :

ـ طلب منه أن يكتب الى أبي مسلم الخراساني ليقمع الفتنة ، فرفض ، وكان أن قضى عليه نتيجةَ رفضه .

شعر سليمان بالفرح والامتعاض معاً : فرحَ لأن الحمق

دفع مروان بن محمد الى القضاء على إبراهيم ، فخسر الهاشميُّون قائداً من قادتهم ، وحقد على مروان لأنه قضى على صديقه إبراهيم الإمام شقيق أبي العباس وأبي جعفر المنصور . فقال لابن أخيه :

– يا لها من بشرى يا عبد الرحمن !

فأجابه ابن أخيه :

– لكن القضاء على إبراهيم يعني البلاءَ للأمويين !

قال سليمان :

– ليس هذا صحيحاً . فالصحيح أنه يعني القضاء على الخليفة مروان وحده . هل تُشفق عليه ، وأنا أحقُّ منه بالخلافة يا ابن أخي ؟

أدرك عبد الرحمن مدى حقد عمه سليمان على مروان . وكان يعلم شيئاً من ذلك . غير أنه كان يخشى على الأمويين من بطش الهاشميين . لأن الهاشميين ينتظرون مثل هذه الفرصة ليقضوا على كل الأمويين ويستعيدوا الخلافة التي يطالبون بها ، وأجاب :

ـ كلاّ يا عمي . أنا لا أشفق على مروان ، لكنني أخشى أن تمتد النار إلى الأمويين كلّهم . فَلَيْتك تسعى الى التوفيق بين الهاشميين والأمويين بدلاً من أن تكون الى جانب الهاشميين !

عندئذٍ دنا سليمان من ابن أخيه الذي يحبه ويحترمه وضمَّه إليه قائلاً :

ـ أقسم لك يا أخي بالتراب الذي ضمَّ أخي معاوية وجدَّك هشاماً أننا ظُلمنا بهذا الرجل الذي تولى الخلافة . فعلينا أن نهدمه بسواعدنا وسواعد الهاشميين ، وستبقى الخلافة لنا. وسيبقى الأمويون سادة العرب، لأنهم العروبةُ النابضة بالصدق والإباء العربي. ويجب أن تعلم يا عبد الرحمن أن بني هاشم وعدوني بالمبايعة حالما يتمُّ القضاء على مروان.

ابتسم عبد الرحمن ، وهو يرى جنوح عمِّه عن نصرة الأمويين :

ـ وهل صدَّقتَ الهاشميين يا عمي ؟ مـا أظنُّهم حريصين على الوفـاء بوعدهم ، وهم يدَّعون أنهم أحق بالخلافة منا . كم يؤلمني يا عمي أن تثق بهم ، وقد قاوموا

أباك وجدّك !! مَن قوّض زعامة أبي سفيان ؟ من فتك بعثمان ، وعصى يزيدَ وأقلق مروان ؟ إن من ثار على هشام لن يعفّ عنكِ وعن أيوبٍ ابنـك ، وأنت فرعٌ من الأمويين . ما بال نيّـتك السليمة تقودك الى تصديق هـذا القول ؟

انتفض سليمان ، واستغرب أن يلومه ابن أخيه ، وإن كان يعتقد أنه ذو عقل نيّـر وحكمة قلّـما تخطىء ، وقال :

ـ لستُ على ضلال يا عبد الرحمن . إن من يرفض رأيي عليه أن يسير الى جانب مروان .

فأجابه عبد الرحمن :

ـ يجب على الأموي أن ينصر الأمويّ يا عمّـاه . إن هذه الدولة مهدَّدة بالفناء . ولك فيها عظيم الأمل بالوصول الى حيثُ تشاء حينما تكون قوية البنيان . أما إذا هُدمت دولة الأمويين فإننا سنتساقط جميعاً كأوراق الخريف ، ويكون أبو أيوب أولَ الذين تلعب بهم الرياح !

حينئذ صاح سليمان قائلاً :

ـ أنا يا عبد الرحمن .

فأجابه ابن أخيه :

ـ أنت يا عمّـي.. أنت !! إياك أن تصدّق الهاشميين.

وغادره عبد الرحمن يفكر فيما يقدم عليه .

ولكن سليمان بن هشام انطلق بعد أيام الى حيث يقيم عبد الله بن علي ، واجتمع اليه ، وحثّـه قائلاً :

ـ نحن بانتظار ساعة الثورة ، يا عبد الله ، لنقضي على مروان وزبانيتهِ .

فلم يقابله عبد الله بن عليّ إلا بصمت عميق ، وهو يردّد بينه وبين نفسه :

« يا له من مغفَّـل ! أيظن أننا نقوم بثورتنا لنخلع مروان ، وننصّـب على الخلافة سليمان !! »

٦

موقعة الزاب وإخفاق سليمان

انطلقت صيحةُ الهاشميين في العراق. فأعلن بنو هاشمٍ الثورةَ على الأُمويين. وردَّد الصدى أبو مسلم في خراسان، وجاراه في ذلك بحذرٍ صوتٌ من الشام، وآخر من الحجاز.

واحتشدت قوات الخراساني في المَوْصِل، ورافقتْها الى المعركة جحافل العبّاسيين والعلويين، وانضمَّ اليها سليمان بن هشام الأموي بكتائبه.. فشعر مروان بالخطر الفادح. هل هناك من نجاة؟ وكيف السبيل الى ذلك؟

لقد مضى على الخلافة الأموية التي بنى أركانها معاويةُ ابن أبي سفيان أكثرُ من تسعين سنة . وها هي الآن تبدو أوهى من بيت العنكبوت وأضعف من الخشب أمام النار.

وإذا كان الهاشميون قد ثاروا انتقاماً من الأمويين فلماذا أيَّدهم سليمان بن هشام ؟ هل ستؤول اليه الخلافة بعدك يا مروان ؟

وضحك مروان الذي استعدَّ للقضاء على الثورة . وحدَّث نفسه للمرة الثانية : « إذا حُرمتُ من الخلافة فسيتولاّها الهاشميون ، ويخسر سليمان نفسَه ونسله » .

وقاد مروان جيش الأمويين الى معركة الزاب .

وقاد عبدالله بن عليٍّ أحدَ جيوش الهاشميين. والتقى الجيشان في معركة ضاريةٍ كان عدد الأمويين فيها يقارب تسعين ألفاً ، بينما بلغ الهاشميون مثل هذا العدد . وكان حقد الهاشميين أعنف من قوة الدفاع لدى الأمويين . وكان الانقسام بينهم قد شجَّع خصومهم وحطَّم قوّتهم .

وجرت المعركة الفاصلة عند نهر الزاب في العراق .

وتغلّب الأمويون في البداية . لكنّهم ارتدّوا على أعقابهم بعد أن حملت عليهم جيوش الهاشميين .

واندحر مروان ، وتفرّق الأمويون . وكان بينهم عبد الرحمن على رأس كتيبة من الفرسان. وخسر مروان العراق بأسرها على أثر هزيمته وانتصار الهاشميين الذين أرادوا للأمويين هزيمة قاضية .

وفتك الهاشميون بثلاثمائة شخص من أعيان الأمويين. واعتقد سليمان بن هشام أن عبد الرحمن ابن أخيه كان أحد القتلى .

ولكن ، ماذا يهمّه أن يُقتل من قومه المئات والألوف ، إذا كانت النتيجة هي اندحار جيش مروان ، وتسنُّمه هو عرش الخلافة بعده ؟

إن الهاشميين قوم إذا عاهدوا وفَوْا بعهدهم !

وانطلق لتوّه ، الى حيث يقيم أبو العباس ، وحيثُ اجتمع الهاشميون ليقرّروا مصير الدولة بعد موقعة الزاب . كانت هزيمة الأمويين في العراق تعني أنهم خسروا

الخلافة ، ولَسوف تطاردهم جُموعُ الهاشميين حتى أقصى بلاد الشام .

وجلس سليمان الى جانب أبي العبّاس واستمع الى حديثه عن النصر الذي أحرزه رجاله . وقال أبو العبّاس:

ـ إن فرساننا يطاردون مروان ، وسنلحق به حيث نشاء . ولن نتركه إلا وقد قُضي عليه . هل تعلم أن عبدالله ابن علي يقود الجيش الذي يلاحقه ؟ إن عبد الله سيفٌ مسلول من سيوف الهاشميين .

قطَّب سليمان حاجبَيْه ، وهو يسمع اسم عبد الله ، فقد كان حقده على مروان يُنسيه خصمه عبد الله . ودخل المجلس رجلٌ كساه الغبار ، وكأنه قادم من معركة ، فرحَّب به الجميع . وتطلَّع إليه سليمان ، فعرفه ، وضاق بوجوده . إنه عبد الله بن علي نفسُه ، قد جاء الى أبي العبّاس يُعْلمه بأنباء القتال .

وما إن جلس الرجل حتى خاطب أبا العبّاس قائلاً :

ـ لقد أوصى إليك إبراهيم الإمام بالخلافة ، فأنت

قائدنا منذ الآن . وسنبايعك غداً عِندما نقضي على مروان. الخلافة لك يا أبا العبّـاس !!

فضحك مَن في المجلس . واغتنم عبد الله هذه الفرصة ، فأراد خَذْلَ سليمان بن هشام وإهانته ، فقال ، وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

ـ إن أبا العبّاس صاحبُ الحقِ بالخلافـــة . أليس كذلك يا سليمان ؟

اهتزَّ الأُموي من هـذه المفاجأة . إذنْ لقد صدق ابنُ أخيه فيما تنبّـأ ، هل يرفض الآن الموافقة فيلقى حتفه في هـذا المجلس ؟! إنـه لا يساوي شيئاً في نظر الهاشميين الذين أحرزوا النصر في الزاب ، وهم يقضون على الأمويين .. الواحد تلو الآخر !

وشعر بالحرَج .. ليس أمامه إلا أحد أمرين : إما أن يرفض الخلافة لأبي العبّـاس ، فيموت ، كما مات الأمويون الثلاثمائة ، أو أن يوافق فيبايـع أبا العباس ويقنع بالسلامة ، ولو إلى حين .

عندئذٍ قال والألم يحزُّ في نفسه :

ـ كلّنا يوافق لك على ما تقرُّ به يا عبد الله .

سمع سليمان كلماته هو ، فشعر بالذلّ . نعم ، لقد هدّد عبدَ الله ، لكنه خسر كل شيء : خسر بني قومـــه ، والخلافة ، وربما الأملَ بالحياة إذا استمرَّ عبدُ الله على خصومته له .

وندم سليمان على انشقاقه عن الأمويين . لماذا لم يستمع إلى نصيحة عبد الرحمن ؟ ألم يكن موقفه هو جديراً بتغيير نتيجة المعركة ؟

شعر أبو العباس أن الأمويَّ أُصيب في صميمه فمـــال الى تعزيته بأسلوب لطيف . لكن سليمان الذي رأى المصيبة بعينه لم يعد يطيق العزاء . فانصرف من مجلس أبي العباس وعاد الى منزله خائباً .

ماذا يكون نصيبه لو ترك الهاشميين منذ الآن ، وعاد الى الأمويين؟ إن مروان عدوّه . ولم يبقَ من مجال للتفكير بالتراجع . فما حدث قـــد حدث ، وليس من سبيل إلى ردّه .. إنما عليه أن يَحذَر الهاشميين منذ الآن .

٧

فرار عبد الرحمن

حمل الهاشميون رايتهم السوداء ، وراحوا يطاردون فلول الأُمويين ...

كان عبد الرحمن على ضفاف الفرات يردُّ عن الجيش الأُموي هجمات الهاشميين . كان فارساً صِنديداً ، متمرِّساً بالقتال ، على الرغم من حداثـة سنه . لكن الهزيمـة أرعبت الجنود الأُمويين ، ونثرتهم أشتاتاً متفرقة في كل صَوْب . وكان عبد الله بن علي يضرب ولا يرحم ، فيما هو يتعقب خصومه .

كان هدف هذا القائد الهاشميّ أن يقبض على غريمه عبد الرحمن ، لأنه كان يخشى صولتَه وبأسه ، إذا تمكّن من النجاة .

ولكن ، أين هو عبد الرحمن ؟

حين أدرك عبد الرحمن أن الأمر خرج من الأمويين، لم يجد أمامه سبيلاً للنجاة إلا الفرار . وأين المفرّ ؟ والأعداء يحيطون به من كل مكان !

لجأ الى قرية ، على ضِفة الفرات ، في ظلمة بيت توارى فيه ، وهو شديد الرّمد ، ومعه خِرقة سوداء يمسحُ بها قذى عينيه ، وابنه الصغير يلعب قُدّامه ، وهو يومئذٍ ابن أربع سنين أو نحوها .

وفجأة ، دخل الصبي من باب البيت فزِعاً ، باكياً ، فأهوى الى حِجر أبيه ، الذي راحَ يدفعه عن حجره ، لما كان به من هموم ، ويأبى الولد إلا التعلّق به ، وهو دهِش ، يردّد ما يقوله الصبيان عند الفزع .

فخرج عبد الرحمن لينظر ... فإذا بالخوف قد نزل بالقرية . ونظر الأُمويّ الى حيث كانت ترنو العيون ،

فإذا بالرايات السود عليها منحطّة ، وإذا أخٌ له كان معه، يشتدُّ هارباً ، ويصيح :

ـ النجاةَ النجاةَ يا أخي ! هذه هي راياتهم السوداء...

فضرب عبد الرحمن بيده على دنانير كانت معه ، ونجا بنفسه ، وأخوه الصغير معه ، بعد أن أعلم أخواته بالمكان الذي يقصده وطلب إليهن أن يلحقنه ، بصحبة خادمه بدر ، إذا قدَّر الله له السلامة من أعدائه . والتجأ الى موضع ناءٍ عن القرية .

وما هي إلا ساعة حتى أقبلت الخيل ، فأحاطت بالدار ، فلم تجد أثراً لعبد الرحمن ، وإنما وجدت هناك زينب بنت عبدالله بن عليّ . وكانت هذه فتاة نبيلة أحبّت عبد الرحمن وودّت لو يتمّ الصلح بين أهلها الهاشميّين وبين الأمويين ، فتتزوج من عبد الرحمن وتُحقَن دماء المسلمين من الجانبين .

وقد رآها أبوها هناك، فما كان من ذلك الأب المتحجّر القلب إلا أن طعنها في صدرها بحربة فارقت من أثرها الحياة على الفور .

مضى عبد الرحمن ولحقــه بدر ، فأتى رجلاً من معارفه بشطّ الفرات ، فامره أن يبتاع له دوابَّ ، وما يصلح لسفره .

ولكن الطمع حرَّك أحد عبيد الرجل ، فدلَّ الأعداءَ عليه ... فعاود الفِـرار مرة ثانية على الأرجل ، والخيلُ تتعقّـبه ومن معه ، حتى دخل أجمة على الفرات ، فحجبته عن العيون . واستدارت الخيل ، فخرج عبد الرحمن وأخوه ، والخيل محيطة بالأجمة، حتى سبقاها الى الفرات، فقفزا فيه .

وأقبلت الخيل متأخرة ، فصاحوا عليهما من الشطّ :

ـ إرجعا ! لا باسَ عليكما !

ولكن إلى أين الرجوع ؟ إلى السيوف العطشى ؟ إلى الدماء ؟ إن الغرق أهونُ من القتل .

وسَبَـحَ عبد الرحمن حاثّـاً لنفسه ، والروحُ عزيزة على صاحبها ، وكان يُحسن السباحة ، وسبح خلفه أخوه الصغير . وما هي إلا ساعة حتى سبق عبد الرحمن أخاه بالسباحة ، وقطعِ قدْرِ نصف الفرات ، وقصَّر أخوه .

ودهش عبد الرحمن ، فالتفت اليـــه ليقوّي من قلبه ويصيح عليه :

ـ تقدَّمْ ! الحقني !

ولكن أخـاه لمّـا سمع تأمينهم إياه وأصغى إليهم ، وخاف الغرق ، وثـِق بوعدهم فعاد نحوهم ، وعبدُ الرحمن يناديه :

ـ إنهم سيقتلونك يا أخي ! إليَّ ، إليَّ !

فلم يسمع الفتى نداءه ، بل اغترَّ بأمانهم ، وخشي الغرق. وحال بينهما الموج ...

ظلَّ عبد الرحمن يكافح النهر ، وهمَّ بعض أعدائـه بالتجرُّد للسباحة في أثره ، لكنهم عَدَلوا عن ذلـك ، وتركوه الى حيث يقذف به الماء .

وحين التفت خلفـــه ، وقعت عيناه على مشهد أليم ، هيهات أن ينساه طولَ حياته .

لقد قدّموا أخاه الصبيّ الذي عاد اليهم بالأمان ، فضربوا عنقه ، ومَضوا برأسه ، وعبد الرحمن ينظر اليه متألماً ،



هكذا تخيلت زينب زفافها الى عبد الرحمن

لا يقدر على حيلة تنجيه ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فاحتمل فيه ثكلاً ملأه أسىً وخوفاً .

مضى عبد الرحمن إلى وجهه المجهول ، وهو ساعٍ على قدميه ، حتى لجأ إلى أجمة متشابكة الشجر ، توارى فيها حتى انقطع عنه الطلب .

ثم خرج هارباً يؤُمُّ وطناً مجهولاً ... وأصبح في حماية البادية .

وهكذا فرَّ عبد الرحمن من هذا المأزِق الحرِج ، حتى انتهى إلى فلسطين ، حيث لحقه خادمه بدر ، وسالم خادم شقيقه ، ومعهما جواهر ودنانير للنفقة . ولم يستقرَّ بهم المقام إلا قليلاً ، حتى سار الثلاثة قاصدين « أفريقية » حيث النفوذ العباسي لا يزال قليل الامتداد .

وجُنَّ عبدُ الله بن علي ، فراح يبحث عن سبيل للقبض على عبد الرحمن ، وأرسل من يبحث عنه ، مقابلَ مكافأة مالية ينالها إذا أتى به حياً ، أو ميتاً .

لكن عبد الرحمن الذي كان يخوض لهيب البادية وقسوتها كان يمضي في طريقه إلى المغرب .

٨

الاعداء والصحراء

كتمت السهولُ والوديان فرار عبد الرحمن بن معاوية. فانتقل الهارب من الدم ، من مكان أمين إلى مكان أمين . ورفض خادماه المخلصان أن يتركاه وحيداً .. فرافقاه . وكان أحدهما يكشف له الطريق ويحمي له ظهره ، والآخر ينزل بعض الوقت في القرى القريبة من طريقهم ليتسقّط الأنباء .

وفيما كان عبد الرحمن في ظلال شجرة في إحدى الواحات أبصر في الأُفق القريب رجلَين يتقدمان تقدّماً

بطيئاً ثم يتساقطان على الرمل الحار الواحدُ تلو الآخر .
فصاح بخادمه بدر :

ـ أنقِذ الرجلين يا بدر . لقـــد سقطا من التعب وحرارةِ الصحراء ، فربما يكونان صديقَين .

وأسرع بدر ، ولحق به سالم ، وحملا الرجلين اللّذين أُغمي عليهما ، ووضعاهما إلى جانب عين المـــاء . ورشّ عليهما عبد الرحمن ما يكفي لإعادة وعيهما . وأدرك من ملامحهما وملابسهما أنهما من عبيد سيّدٍ عربي . لكن السيف الذي يتقلده كل منهما ، والنبـال التي يحملانها ، كانت تدل على أنهما ماضيان في مهمة حربيّـة .

ولما استفاق أحدهما من غيبوبته ، ونظر حوله ، شاهد الفتى النبيل الذي يبحث عنه، فنهض وصاح برفيقه العبد:

ـ هذا هو عبدُ الرحمن . لنقبضْ عليه ، أو لنقتله . إنه مَطلَبنا .

وما كان من عبد الرحمن المحسن إلى هذين العبدين إلا أن ابتسم ، وقال :

ـ أُقتلاني إن كان لكما في ذمتي دَين .

وصاح بدر وسالم :

ـ لنقتلْ هذين العبدين اللّذين أنكرا جميلنا .

وأمسكَ كلاهما بعبدٍ منهما وطرحه أرضاً ، وكاد يقضي عليه بسيفه لولا صيحةُ عبد الرحمن :

ـ لا تؤذياهما ، إنهما لا يدركان ما يفعلان .

وتقدّم من أحدهما قائلاً :

ـ لماذا تريد قتلي ؟ هل أنا عدوُّك ؟

حينئذٍ وعى العبد حقيقة الأمر . أيقتل هذا الرجلَ وليس في إمكانه إلا الموت جزاء غدره ؟ أيفعلُ ذلك لأنه حصل على ألف درهمٍ من عبد الله بن علي ؟ لمادا لا يكون خادَمه بدلاً من عدوه ؟

وللحال انقلب الموقفُ .. فانحنى العبدان يستغفران الأمير الأموي ويرجوانه أن يكونا رفيقيه الى حيث يمضي . وأعلماه بمهمّتهما ، وأن عبد الله بن عليٍّ كلّفهما بذلك وقال لهما :

ـ إذا عدتما بـــه حياً أو ميتاً كان لكما منّـي العطاءُ الجزيل . أما إذا رجعتما خائبين فإن مصيركما الموت .

وافق عبد الرحمن على طلب العبدين . وما كان الأمير الأموي يمثّـل غير الشهامة والإباء .

وعلم منهما ما جرى بعـد فراره : قُتل أخوه يحيى ، ولكنه مات بطلاً . وقضى عبد الله ، على مقربـة من بلدة « الرَّملة » على كلٍّ من كان يسكن فلسطين من الأُمويين ، إذْ أقام لهم وليمة وعاهدهم بالأمان .. ثم أُمر جندَه بقتلهم وهم يتناولون طعام الوليمة التي أقامها .

طفرت الدموع من عيني عبـد الرحمن ، إذ استعظم المصاب ، لكنّـه أراد أن يستزيد ممـا يعلم العبدان ، فسألهما عن عمِّـه سليمان .

وتردّدا في البداية . فعرف أن صمتهما يعني كتمان الكارثة . وألحّ عليهما أن يُعلماه بمصير عمِّـه . وأفضيا إليه بالنبأ المشؤوم : مات أبو أيوب ، وأيوب ، بعـــد معركةٍ بطولية. لقد تكاثر الهاشميون عليهما فلم يتمكنا من النجاة.

ارتعش عبد الرحمن ، واسودّت الدنيا في عينيه ..

لقد خدع القوم عمَّه ، ولم يسمع نصيحة ابن أخيه ، الذي لم يبقَ من الأمويين سواه . وربما الخليفة مروان إذا نجا من بلاد الشام .

وانطلق عبد الرحمن وخدمه يتابعون طريقهم الى المغرب . فقد يَسْلم إذا كتمت الأرضُ سرّه . أما إذا علم به الهاشميون وأتباعهم فسيلحقون به ، ويكون مصيره كمصير أهله .

وبلغ الركب وادي النيل بعيداً عن أنظار الناس . فأقام عبد الرحمن بعض الوقت للراحة ، وانطلق خادمه بدر إلى أقرب قرية يستعلم عن أنباء المعارك . فعَلِم بنبأ مَقتلِ مروان . وعاد إلى مولاه الأموي يُعْلمه بما قد حدث . لكن كيف تُراه مات ..

التجأ مروان بن محمد الى صعيد مصر . فطارده صالح ابن عليّ الهاشمي بجيشه وقضى عليه في مدينة «أبو صير» . وعاد بشعار الخلافة « البُرد والقضيب والمخصَرة »[1]

---

(١) عصا يحملها الخليفة عندما يخطب في الناس .

ليقدّمه إلى أبي العبّاس الذي تولى الخلافة .

لم يبقَ أمام عبدالرحمن ملجأٌ إلا أرض المغرب. فلعلّه يسلم من الأخطار المحيقة به إذا وصل مقرَّ ابن حبيب الفِهريّ ، الذي كان الأمويون قد جعلوه أميراً على المغرب.

واستأذن الأموي الهارب في الدخول على ابن حبيب الفهري ، فتجهّم أمير المغرب وسمح له بالدخول . وما كان يعتقد أن أحداً من الأمويين قد سلم من مطاردة الهاشميين . أيكون هو ذلك « النجم الذي ينطفىء في المشرق ليتوهج في المغرب » ؟

بدأ الفهري يتآمر على عبد الرحمن منذ قدومه. وشعر بعضُ من في القصر أنه ينوي تسليم الفتى الأموي إلى جيش صالح بن عليٍّ الذي يقيم في وادي النيل .

وفي الليل المظلم جاء رئيس خدم الفهريّ ، يُوقظ عبدَ الرحمن من نومه ، وقال له :

ـ أسرِعْ أيها الأمير ، أسرعْ ! لقد تآمر الفِهريُّ عليك، إذ أرسلَ إلى صالح بن عليّ بوجودك هنا. أسرعْ ! وأنا دليلك في الطريق .

وانطلق عبد الرحمن وركْبه في الليل القاتم ، قاصدين « سبتة » حيث يُقيم أخواله . وراح رئيس خدم الفهريّ يحشد كلّ من يكره الفهريّ ، ويستضيف أعداءَ ذلك الأمير . وكان أشهرهم « دانوس » البربري الذي كان يُعادي الفهريّ عداوة شديدة . وهو يتزعّم قبيلته المعروفة بقوّتها ،وكثرة عددها .

وقد صبر عبد الرحمن في غُضون ذلك صبراً جميلاً ، واحتمل شظف العيش ، وشرب لبن النّياق ، واكتفى بخبز الشعير ، دون تذمّرٍ واكتئاب .

ولم ينطفىء في ناظره ضوء ذلك الأمل برغم المخاوف التي كانت تتكاثف حوله ، وتعكّر أُفق حياته . ومن ورائه كان حاكم افريقية لا يزال يبثُّ عيونه ، ويجدُّ في مطاردته .

وبعد أن طوّف عبد الرحمن في مختلف أنحاء افريقية نزل ضيفاً على قبيلة « زناتة » ، أخواله . وكانت زناتةُ تقيم جنوبي مدينة « سبتة » على مقربة من البحر المتوسط .

ها هو عبد الرحمن ...

يا له من طريد ، مشرد ، مهلهل الثياب ، غامض الشأن ، غير موفق المسعى . لكنه ، مع ذلك ، ليس بالرجل الضعيف ، الذي يهزمه الفشل ، وتزعزع إرادته الحوادث .

أليس هو سليل أولئك الأمويين الذين بنوا ملكاً عريضاً في المشرق والمغرب ؟ وقد أصابهم ما أصابه ، فما يئسوا وما وهنوا .

إن نبوءة « مسلمة » كانت تفجّر قوّته ، وتبعث أمله ، كلما لجّ عليه اليأس ، وغلب عليه الاكتئاب والتخاذل ...

وهنالك ، في سبتة ، بدا لعبد الرحمن أن افريقية لن تكون له الوطن الذي يريده ، لكثرة الخصوم والمتقلبين حوله . فالتفت الى ناحية الأندلس ، في البرّ الثاني . وأخذ يترصد أخبارها ، ويتسقط حوادثها ، فأدرك أن الفوضى السائدة بالأندلس ، وضعف حكّامها ، وكثرة الثورات فيها ، تُفسِح له الأمل وتَعِده بنصر مبين .

ولما اختمرت الفكرة في ذهنه ، فاتح أخواله

والموالين للأُمويين بما عزم عليه ، فشجَّعوه ، ووعدوه أن يضحُّوا بكل شيء من أجل تحقيق هدفه .

وكتب الموالون للأمويين في سبتة الى اثنين من زعماء « طليطلة » ينبئونهما بسلامة عبد الرحمن بن معاوية من أذى الهاشميين ، وبرغبته في جمع كلمة الأندلس تحت الراية الخضراء ، راية بني أميّة .

وحمل الخادمُ « بدر » الرسالتين وانطلق بهما مسرعاً الى « طليطلة » .

وقد استبشر « بدر » خيراً ، وهو ينظر الى رياض الأندلس الجميلة فيحسّ وكأنه في الجنة ، ويحدّثها قائلاً : أليس من حقّ هذا الفتى الصبوح النبيل أن يسود ويحكم هذه الجنة ؟

والتقى « بدر » في طليطلة الزعيمين : عبيدَ الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ، وهما من أنصار الأمويين . وقد حملا الراية يوم جاءت المغرب .

ورحَّب الزعيمان بالنبأ العظيم . وقد كانا ينتظران مثل هذه المناسبة . لأن الحالة تبدَّلت في الأندلس منذ

سقوط الأمويين وقيـام العباسيين . فتولى الإمارة يوسفُ ابن بخت الفهريّ ، يعاونه في ذلك الصُّميـل بن حاتم .

ولكنهما أرادا مشاورة الصُّميّـل في الأمر، قبل تقرير الخطة التي يتبعونها . وكان الصميّـل ، إذ ذاك ، مضروباً حوله الحصار في « سرقسطة » . وكان معروفاً أنه ناقم على يوسف لتقاعده عن نصرته . واجتمع رأيهما على ألاَّ يردَّا الى عبد الرحمن جواباً ، حتى يشاورا الصميّـل .

وصحبهما بدر في هذه المهمة ، وخلا الثلاثة بالصميّـل ، وكاشفوه بأمر عبد الرحمن ، وقالوا له : إنه مستتر ببلاد البربر ، وخائف على نفسه . وأطلعاه على الكتـاب الذي حمله « بدر » وقالا له :

« إننا لا نقْـدم على رضىً ولا سخط إلا برأيك ، فإن ترضَ أمراً رضيناه ، وإن تسخط عليه سخطناه » .

وأدرك الصميّـل خطورة الأمر ، فطلب أن يُمهلاه حتى ينظر .

وانصرف الأُمويّـان الى منازلهما ، ومعهما بدر . وقفل

الصميّل الى قرطبة ، فوجد « يوسف » يجهّز حملة لمقاتلة الثائرين في سرقسطة .

وخرج يوسف بالناس، وبعث الى الزعيمين : أبي عثمان وعبد الله بن خالد ، فقدما عليه ، وأمرهما أن يدعوا رجالهما للخروج معه .

فقال له عبد الله :

« ليس في القوم نهضة ، ولا قوة على الخروج ... لقد تقطّعوا ، وأهلكهم الله بالشتاء والسفر مع ما نال الناسَ من الجهد » .

فأخرج يوسف اليهما ألف دينار ، وقال لهما :

ـ « قوّياهم بهذه » !

فقالا له :

ـ « وأين تبلغ هذه منهم ؟ » .

وأمسكا عن أخذها لقلّتها . ولما خرجا أجالا الرأي ، ورأيا أن قبول ذلك المبلغ القليل خيرٌ من تركه ، وهو

يعينهما فيما يبغيان . وبوسعهما أن يختلقا الأعذار لتخلّف رجالهما عن النهوض مع يوسف .

فعادا اليه ، وأخبراه بقبولهما المبلغ ، ولما حملا الدنانير عادا الى رجالهما ، وفرّقا جزءاً منها على العصبة الأُموية ، تقويةً لرجالها ، واستئلافاً لهم . وخرج يوسف ولم يُعرّج على شيء .

حضر الأُمويان رحيل يوسف ، وودّعاه ، وعادا ليودّعا الصميّل . وكان الصميل ، لإدمانه الخمر ، لا يكاد يُرى إلا سكران ، فألفياه راقداً . ولم يستيقظ من نومه إلا بعد أن تحرّك الجيش ، ومضى الناس ، ولم يبق غيره . فلما خرج ـ وكانا ينتظرانه ـ تقدما اليه ، فقال لهما :

ـ « ما خبركما ، وما رجّعكما ؟ »

فأعلماه بما كان ، فاستحسن ذلك . وبعد أن سارا معه اقتربا منه ، وقالا له :

ـ « نريد رأيك في الذي كنا نشاورك فيه من أمر عبد الرحمن بن معاوية ، فإن الرسول لا يزال ينتظر » .

فقال لهما :

ـ « لقد فكَّرت فيه ، واستخرتُ الله ، وكتمتُ الأمر ، فما شاورتُ فيه قريباً ولا بعيداً ، وفاءً بما جعلتُه لكما من ستره ... وقد رأيت أنه حقيق بنصري له ، فاكتبا اليه على بركة الله ، فإني سأحمل هذا الأصلع ـ يوسف ـ على أن يتخلَّى له عن الإمارة ، ويزوِّجه ابنته ، على أن يكون واحداً منا . فإن فعل قبلْنا منه ، وعرفنا حقه ، وإن أبى هان علينا أن نقرع صلعته بسيوفنا » .

فقبَّلا يده ، وانصرفا على غاية من السرور .

• • •

لكن الصمَّيل ، بعد أن خلا بنفسه ، أدرك خطأه وتسرُّعه ، ورأى أنه لو تمَّ الأمر لعبد الرحمن فإنه سيقيم مُلكاً بالأندلس ، ويستأثر بالسلطان وحده . وفي ذلك خطر عليه وعلى غيره من رؤوس القبائل . فبادر بإرسال أحد أتباعه للَّحاق بالرجلين .

وبينما كان الرجلان يسابقان الريح ، إذا بصائح خلفهما ينادي :

ـ تمهَّلا ! إن الصميل يريدكما .

وما هي إلا فترة حتى أقبل الصميل وحده ، على بغله الأبيض ، فناداهما ، وانفرد بهما ، وقال :

ـ « إني منذ أتيتماني برسول ابن معاوية وكتابه فكَّرت، ثم كان مني إليكما ما كان . ومذ فارقتكما عاودت التفكير.. فوجدته من قوم لو بالَ أحدهم في هذه الجزيرة، غرقنا نحن وأنتم في بوله ...

وأنا أعلمكما أن أول سيف يُسَلُّ عليه سيكون سيفي.

فقال له أبو عثمان :

ـ « أصلحك الله ! ما لنا رأيٌ إلا رأيك ! »

فقال :

ـ « لا تفعلا ! فإن أحبَّ غيرَ السلطان فله عندي أن يُواسيه « يوسف » ويُزوِّجَه ، ويصِلَه بالعطاء ... »



الصميّل مطرق يفكر في أمر عبد الرحمن

وهكذا انقطع الرجاء أخيراً من الصميل ونصرته .

ولكن الزعيمين لم يركنا الى اليـــأس ، والخذلان . واكتفيا بالرجوع الى جندهمـا ، فابتاعا مركباً ، ووجّـهَا فيه أحد عشر رجلاً ، مع بدر ، وسلّـماه خمسمائة دينـــار لتكون معه عُدَّةً للنفقة عليه تساعده في تنقّـله .

٩

طارق من جديد !

كانت قد مضت شهور على عبد الرحمن ، وهو يقاسي آلام الانتظار ويتشوّق الى أخبار بدر ، وهو مشتّت النفس بين اليأس والرجاء .

وذات يوم ، بعد أن قضى نهاره في مخبئه ، خرج يتمشّى على شاطىء بحر الزّقاق ، مسترسلاً الى أوهامه ، يلتمس الهدوء في هذه الطبيعة الهادئة ، ويقلّب الطرف في أمواج البحر الهادرة ، ويجيل الفكر في مصيره ومستقبله . كان يقول :

« هل كَتب عليَّ أن أعيش خائفاً مترقباً ؟ ها قـــد مضي شهور على غيبة بدر ، ولم يعد ! يا تُرى ، هل أُخفق في مسعاه ؟ هل اكتُشف أمره ، فقتلوه ، أو سجنوه ؟ كم ذا تتعذب يا عبد الرحمن !! »

ولكن شأنـ عبد الرحمن كشأن كل عظيم ، تغشى حياتَـه بعضُ السُّحب السوداء ، فتحجب عنه نور الأمل ، ويسترسل إلى اليأس استرسال المنهزم ، لكنه لا يلبث أن يستمدَّ من اليأس أملاً ، ومن الضعف قوة ، فـــإذا هو يتحدَّى المصائب ، ويكافح الأهوال .

كانت الشمس تتوارى عن عينيه تاركةً خلفها وهجاً ذهبياً على حواشي الأُفق ، فأقبل عبد الرحمن على المـــاء يتوضأ . وفيما هو يتأهب للصلاة ، حانت منه التفاتة الى ناحيـــة البحر ، فأبصر مركباً يشقُّ الموج ، على عجل ، ويدنو من الساحل ، وإذا برجل يقفز في الماء ، ويسبح الى الشاطىء ... فمن كان هذا الرجل ؟

إنـــه « بدر » خادمه الأمين الذي لمح سيدَه ، على

الشاطىء ، فلم ينتظر اقتراب المركب وإلقاءَ مراسيه على الشاطىء ، بل وثب الى سيده يقبّله ويعانقه .

ــ بدر ! هل أنت بدر ؟ كدت أيأس من عودتك ... ما هي أنباء القوم ؟

فأجابه بدر :

ــ كل شيء على ما يرام ! وهؤلاء الرجال من شيعتك .

وخرج اليــــه من السفينة « تمّام بن علقمة » فجرى عبد الرحمن ، على طبيعته من التفاؤل ، فسأله :

ــ ما اسمك ؟

قال :

ــ تمّام .

فقال له :

ــ تمامْ خيرٍ ، وما كُنْيتك ؟

فقال :

ــ « أبو غالب » .

فقال عبد الرحمن :

ـ الله أكبر ... تمَّ أمرنا ، ونحن الغالبون بحول الله تعالى .

وتعرَّف عبد الرحمن إلى بقية الرجال ، فشكرهم ، وشدَّد من عزيمتهم . وقال لهم :

ـ لا ينبغي أن نضيع وقتنا ... على نفس المركب الذي حملكم نعود .

أحبَّ عبد الرحمن أن يكون الرحيل سريعاً ، ولم يُرِدْ أن ينبىء أحداً ، من خلفه ، بعزيمته .

ولما همَّ عبد الرحمن بالصعود الى المركب ، أقبل بعض الناس وحالوا بينه وبين الركوب ، فنثر عليهم خادمه بدر ، بعض ما يحمله من الدنانير ، فانفضُّوا عنهم . ولما صار عبد الرحمن بداخل المركب أقبل رجل شديد منهم ، كالجمل الهائج ، لم يكن أخذ شيئاً ، فتعلّق بحبل المركب ، ليمنعه عن الجرْي . فلوَّح أحد رجال « بدر » بالسيف ، فقطع يد الرجل ، فهوى الى أعماق البحر .

واندفعت السفينة تجري في لجّة الموج تحمل « مخلَص الأندلس » وقد ازدانت بالأعلام ، وهبّ النسيم عليلاً ، كأنه يداعب الآمال الناشطة . وقد رحّب الركب بأميرهم الجديد ، وتجاذبوا أطراف الحديث عن الأندلس وأحوالها، وعبد الرحمن يحاول ، بذكائه الوقّاد ، ونظره النافذ ، أن يرسم صورة واضحة لأحوال تلك البلاد ، وكيف يجتذب أعوانه وأصدقاءه ، ويقابل خصومه وأعداءه .

ومن خِلال نور الفجر الذي كان يدغدغ صفحة البحر الهادئة ، ظهر له برُّ الأندلس . وما إن قفز الى البر ، حتى رأى حشداً يرفع الراية الأُموية ، وتعالى الهتاف بحياة بني أمية ...

وهنا، طفرت دمعة السرور من عيني عبد الرحمن ، الذي ما لبث أن هتف بالجميع :

ـ « ها نحن ندخلها غزاةً ، كما دخلها قبلنا طارق ابن زياد » .

١٠

المصاعب تبدأ

حلَّ ركب عبد الرحمن بساحل «البيرة» سنة ١٣٨هـ. وكان في استقباله الزعيمان الأمويان : أبو عثمان وأبو خالد ، اللذان غمراه بحفاوة بالغة وسرور مستفيض .

وأخذت تُقبل عليه الوفود من كل جهة، وعبدالرحمن هو هو ، يعرف كيف يسيطر على عواطفه ، ويبدو في المظهر الملائم للغاية التي أعدَّ نفسه لها .

قدَّم له بعضهم ، عند نزوله من البحر ، خمراً ليستردَّ بها قوَّته ، فابى ، وقال لمن أتَـوْه به :

ـ إني محتاج لما يزيد في عقلي ، لا إلى ما ينقصه .

فما زاده ذلك إلا ارتفاع قدرٍ في عيونهم .

وأُهدِيَتْ له ، بعد ذلك ، جارية جميلة ، فنظر اليها وقال :

ـ إن هذه الجارية تملأ القلب والعين . ولكن ، إن أنا اشتغلتُ عنها بهمتي فيما أطلبه ظلمتُها ، وإن اشتغلتُ بها عما أطلبه ظلمتُ همتي . ولا حاجة لي بها الآن .

وردَّ الجاريةَ على صاحبها !

أما يوسف الفهريّ فكان كاسفَ البال ، متألم الضمير ، لأن ضميره أخذ يؤنِّبه ، لكثرة ما قتل من القرشيّين ، في حالة من حالات النِّكاية والانتقام .

وبينما هو يهمُّ بالنوم ، مفكراً فيما صنع ، ولم تمرّ عليه دقائق معدودات ، حتى استرعى سمعَه صياحُ أهل المعسكر :

ـ « رسول من قرطبة » .

فنهض يوسف مُجفِلاً ، وسأل خادماً له عن جليَّة الأمر ، فقال الخادم :

ـ نعم ، إنه رسول من قرطبة .

فاستُدعي الرسول ، فإذا هو ينبئه أن عبد الرحمن بن معاوية قد وصل الأندلس ، ونزل عند عبيد الله بن عثمان ، وأحاطت به بنو أمية ، وأن عامل « البيِيرة » قد زحف اليه ، بمن خفَّ من أهل الطاعة ، ليخرِجه ، فانهزم أمامه، ولم يقع قتل .

وطار صواب يوسف الفِهريّ لهـذا النبأ ، فدعا « الصميّل » فأتاه مذعوراً ، في وقتٍ غير منتظَر . وكان قد بلغه قدوم الرسول ، إلا أنه لا يعلم ما جاء به .

دخل الصميل على يوسف ، مبادراً :

ـ « أصلح الله الأمير ! ما أزعجك ، في هذا الوقت ، إلا نبأٌ عظيم » .

فقال يوسف :

ـ نعم ، إنه لحدثٌ ، والله ، جليل . وإني أخاف أن يكون الله قد أنزل النقمة علينا بسبب قتلنا هؤلاء القرشيين الأبرياء .

فاجابه « الصميل » بنكر ، وهو يحاول أن يهدىء من خوفه :

ـ لا عليك... إن من قتلتَهم كانوا أهونَ على الله ... فما هو الحدث ؟

فروى يوسف عليه ما جاء به الرسول، فاهتزَّ الصميل على دهشة ، وقال :

ـ حقاً ، خطبٌ جليل ...

فقال يوسف :

ـ وما الذي تراه ؟

فأجاب الصميل :

ـ الرأي أن نزحف اليه من فورنا ، بمن معنا من الناس ، فإما قتلناه ، وإما شرَّدناه فهرب .

وأقرَّه يوسف على ذلك . ولم يضبطوا سِرَّهم ، فشاع الخبر في الناس ، ورأوا في ذلك خلاصاً من الظلم ، فقد ملُّوا كثرة الأسفار ومواصلة القتال . فأقبل عليه جماعة يهوِّنون له الأمر ، ويشيرون عليه بالمضي الى « قرطبة » والصميلُ على رأيه الأول .

وأثنـــاء ذلك الخلاف ، وقع المطر ، وحلّ الشتاء ، وفاضت الأنهار بالمياه ، فترك يوسف المسير الى لقـــاء عبد الرحمن .

ومضى الى «قرطبة» والصميل يحثه على إخماد الحركة في أول أمرها ، فقال له يوسف :

ـ « لقد ذهب المـــال ، وتعبت الخيل من السُّرى ، وأنهكتنا المجاعة في سفرتنا هذه . ولكن ، نسير الى قرطبة فنستانف الاستعداد له ، بعـد أن ننظر في أمره ، ويتبين لنا خيره . فلعله أهونُ مما تصورنا » .

وأدرك الصميل أن الأمر على خـــلاف ما يتصور يوسف ، وأن في مخالفـة الأُمويين لرأيه سرّاً خطيراً ، فقال ليوسف :

ـ « الرأي ما أشرتُ به عليك، وليس غيره . وسوف تدرك غلطتك فيما عزمتَ عليه » .

وانفضّ الجمع على غير اتفاق .

ومضى يوسف الى قرطبة ، تاركاً لعبد الرحمن الوقت الكافي ليضرب ضربته البارعة .

١١

مفاوضة ومعارضة !

ولما أقام يوسف بقرطبة ، خشِي عاقبة المطاولة وخروجَ الأمر من يده، وكان «الصميل» لا يزال يلحُّ عليه في الإسراع الى الخروج للقائه .

ولكن أحد مستشاري يوسف قال له :

ـ « إن الرجل لم يظهر طلبَ السلطان ، وإنما جاء يطلب معاشاً وأمناً ، فإن عرضتَ عليه المصاهرة ، وأغدقت عليه العطاء ، وجدتَه مسرعاً الى طاعتك » .

فوقع هذا الرأي عند يوسف موقع الرضا ، فأوفد

الى عبد الرحمن وفـداً فيه كاتبه « خالد بن يزيد » ـ وكان موضعَ ثقة عنده ـ ومعه نفر من الزعمـــاء ، وبعث معهم بكساء فاخر ، وفرَسين ، وبغلين ، وجاريتين ، وألف دينار ، وكتب اليه كتاباً حملوه مع الهدايا .

وسار الوفد ، وفي الطريق بدا لأحدهم رأيٌ فقال :

ـ أرأيتم إن بلغنا بهذه الهدية ، فكرِه الرجل ما جئنا به ، أليس أخذُه ما معنا مما يقوى به ، ويضعف صاحبنا ؟

فوقع هـــذا الرأي من الوفد موقعاً حسناً ، فقالوا لأحدهم :

ـ أقِمْ أنت هنا بما معنا ! ونسير نحن اليه ، فإن رضي بما جئنا به سرَّحْنا اليك رسولنا ، لتأتينا بما معك ، وإن يكن غير ذلك ، فارجعه الى الأمير ، فهو أحقُّ بما له .

وسار خالد وعبيد القيسيّ حتى قدما على عبد الرحمن وهو في منزل أبي عثمان ، عنده جماعـــة من بني أمية ، ورجال من اليمن .

ولما سُمِح لهما بالمثول بين يدي الأمير عرضا عليه دعوة يوسف له الى الأُلفة والمصاهرة ، وأخبراه أن يوسف

حريص على توثيق الألفة بينه وبين الأمير ، على شريطة ألاّ يطالب بالولاية والسلطان ، وأن يكتفي بما كان سابقاً من أملاك جدّه « هشام » وأن يوسف مستعد للترحيب به ، والحفاوة بمقدمه في قرطبة .

وكان هذا العرض الخلاّب قد راق أنصار الأُمويين ، وأعجبتهم هذه الشروط ، لأنهم خافوا الخذلان .

وأخرج خالد كتاب يوسف ، وناوله لعبد الرحمن ، فدفعه عبد الرحمن ، وقد لزم الصمت ، الى أبي عثمان وقال له :

ـ إقرأه ، وأجب عليه بما تعلم من رأينا !

فقرأ أبو عثمان :

« ... فإن كنتَ تريد المال ، ورِفعة الاسم ، فأنا أولى بك ممن لجأتَ اليه ، أرعاك ، وأَصِل رحمك وأُنزلك معي إن أردتَ ، أو بحيث تريد ، ثم لك عهدُ الله وذمته بي ألاّ أغدر بك ... » .

ولما أتمّ أبو عثمان قراءته ، همّ بكتابة الردّ اليه ، فتوقف طويلاً عن ذلك ، وعبد الرحمن في امتعاض مما

أظهره الأمويون من الرضى ، لأنه لم يكن همه أن يصبح من أصحاب الضياع الواسعة ، والأموال الوافرة ... وأين هذا العرض البخس مما كان يسعى اليه ، من مجدٍ عزيز ، ومُلكٍ عريض ؟

استطال خالد صمت أبي عثمان ، وقعوده عن الردّ – وما كان خالد ، رسول يوسف ، ومنشىء كتابه عربيّاً الأصل ، وإنما كان من أصل اسباني ، اتخذه يوسف كاتباً له ومستشاراً لحذقه وذكائه – بينما كان أبو عثمان رجل سيف، لا رجل قلم ...

فلما رأى خالد إبطاء أبي عثمان ، وتعثّره في الردّ على كتابه ، التفت اليه ساخراً :

« سيسيل العرق من إبطَيْك قبل أن تجيب » .

فاستشاط أبو عثمان غيظاً ورفع يده وضرب بالكتاب وجه خالد ، وقال له :

– ألمثلي يا عدوّ الله ، توجّه هذا القول ؟

وصاح برجاله :

ـ خذوه ، وكبّلوه !

والتفت الى عبد الرحمن وقال له :

ـ « هذا هو أول الفتح ! وهـــذا الرجل هو ساعد يوسف الأيمن ، وبدونه لا يدبر شيئاً » .

وانتظر رفيق خـــالد ـ الرسولُ الآخر ـ حتى هدأ غضب أبي عثمان وقال له :

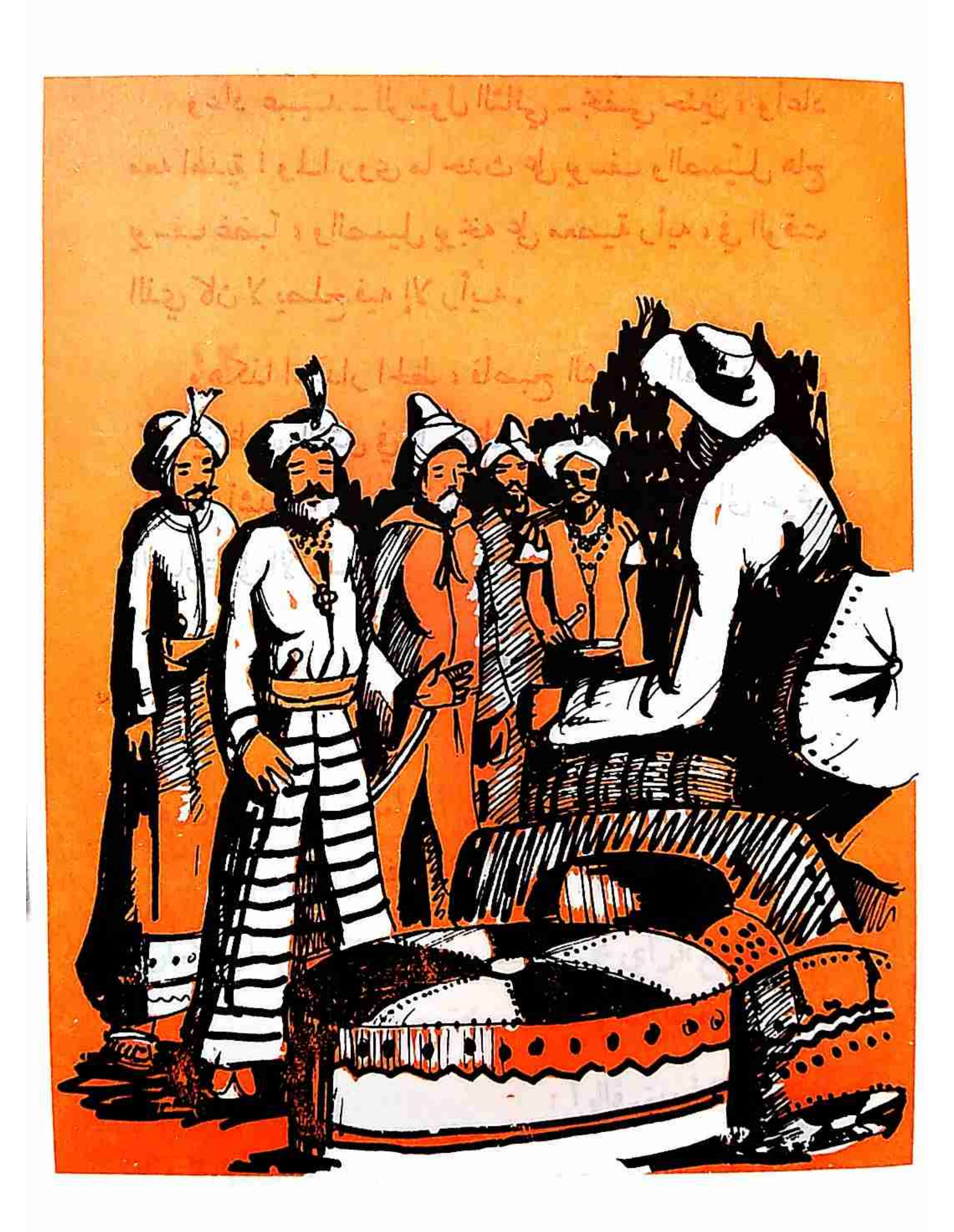
ـ يا أبا عثمان ! هذا رسول ، ولا سبيل اليه .

فقال له :

ـ أنت الرسول ، فارحل في سلام ، وهـذا متعدٍّ ، وقد بدأ بالشتيمة والانتقاص .

وهكذا ، لأمرٍ شاءه القـــدر لصالح عبد الرحمن ، انقطعت المفاوضات بسبب غرور خالد ، واعتزازه بنفسه وسوء تصرفه .

ما كان هذا الذي حدث إلا ليسرَّ عبدالرحمن ، وينعش آماله ، فاعتبره فاتحة النصر .



عبد الرحمن يستقبل رسولَي الصُّمَيل

وعاد عُبَيْد ـ الرسول الثاني ـ بخفّي حنين ، وأعاد معه الهدية ! ولما روى ما حدث على يوسف والصميّل هاج يوسف غضباً ، والصميل يوبخه على معصية رأيه ، في الوقت الذي كان لا يصلح فيه إلا رأيُه .

وهكذا استدار الحظ ، فأصبح الشريد الطريد الذي كان ينتظره القتل في كل لحظة ، بطلاً مرموقاً ، محفوفاً بأنصار أشدّاء ، وشيعة مخلصة ، تحاول أن ترفعه الى عرش الإمارة على الأندلس .

١٢

فتح تفتحت له الاندلس

إلى أين يتحرّك عبد الرحمن ؟ والبحر وراءه ، والعدوّ أمامه ؟

رأى عبد الرحمن أن يبادر أعداءه قبل أن يبادروه ، وفي ذلك جرأة عليهم ، وإيقاع للخوف في قلوبهم .

اجتمع الرأي على أن يقصدوا بعبدالرحمن دار الإمارة في قرطبة ، عاصمة يوسف ، ومجتمع جنده .

وفي الطريق قالوا :

ـ كيف نسير بأمير لا لواءُ له ، ولا علمُ نهتدي اليه ؟

فجاءوا برمح وعمامة ، ليعقدوها عليها ، فكرهوا أن يُميلوا القناة تطيُّراً. فأقاموها بين زيتونتين متجاورتين، فصعد رجلٌ فرعَ إحداهما ، فعقد اللواء ، والرمح قائم .

بلغ يوسفَ خبرُ تحرك جموع عبد الرحمن ، فخرج اليه من قرطبة، وأخذ طريق الضِّفَّة اليمنى لنهر الوادي الكبير ، بينما كان عبد الرحمن يسير بجيشه في الضفة اليسرى .

وسرعان ما تلاقى الجيشان ، والنهر حاجزٌ بينهما . وكان النهر زاخراً طامياً .

ووقف الجمعان ينتظران هبوط مياه النهر ...

حاول عبد الرحمن أن يتسلل الى قرطبة تحت جنح الليل ، فأوقد النيران ليُوهم خصمه أنه يعتزم الراحة والإقامة .

وأمر عبد الرحمن الناس بالتحرُّك ، في جوف الليل نحو قرطبة ، وقال لمن معه :

ـ إننا إن كلَّفْنا الرجّالة أن يسيروا معنا انقطعوا ولم يلحقوا بنا . ولكن يأخذ كل واحد منكم رديفَه !

ثم التفت الى غلام قد ظهر شار به ، فقال له :

ـ من تكون يا فتى ؟

فقال له :

ـ سابق بن مالك بن يزيد .

فقال عبد الرحمن مستبشراً بالأسماء :

ـ سابق سبقْنا ، ومالك ملكْنا ، ويزيد زدّنا ... هاتِ يدك ! أنت رديفي !

وأثناء ذلك شعر يوسف بحركة عبد الرحمن تحت ستار الظلام ، فعاد أدراجه ، ليصدَّ الهجوم على عاصمة إمارته ، وأصبح الجيشان كفرسَيْ رهان .

أدرك عبد الرحمن أن خُطَّته قد انكشفت ، وأن يوسف يسبقه في هذا المضمار ، فأمسك عن المسير ، وتوقف يوسف يراقب حركاته من الضفة الأُخرى . وعاود عبد الرحمن المسير ، فسار يوسف بسيره ، حتى حلَّ صحراء « الصَّارة » .

نال من جيش عبد الرحمن التعب والجوع ، وكان

رجاله قد رَجَوا دخول قرطبة والتوسع في أرزاقها، والانتصار بأهلها، فصدمهم هذا الفشل وجعلهم يتذمرون.

نقص النهر... وأصبح العبور ممكناً، لكن عبد الرحمن أراد أن يستوثق من أنصاره، ويطّلع على مدى رغبتهم في القتال، فقال لهم:

ـ إنا لم نجيء للمقام، وتضييع الوقت. وقد دعانا هذا الرجل الى ما علمتم، وعرض ما سمعتم، ورأيي لرأيكم تبَع. فإن كان عندكم صبر وجلَد، وحب للمكافحة فاعلموني، وإن كان فيكم ميلٌ الى السلم والصلح فاعلموني!

فلم يجد منهم إلا إصراراً على القتال، والمضيّ معه الى النهاية، فقال عبد الرحمن لأصحابه:

ـ «أي يوم هذا؟»

قالوا:

ـ «الخميس، يوم عرفة».

فقال:

ـ «الأضحى غداً يومُ الجمعة. والمتزاحفان: أمويّ، وفِهري. والجندان: قيسٌ ويمن. ما أشبهَ الليلةَ بالبارحة!

إني لأرجو أنه أخو يومَ « مرجِ راهط » فابشِروا وجدّوا ! » .

وكان من دهاء عبد الرحمن أن يذكّر رجاله بيوم مزج راهط ، الذي كانت فيه الوقعة الحاسمة بين جدّه مروان بن الحكَم ، وبين الضحَّاك بن قيس الفِهريّ ، وكان ذلك يوم جمعة، ويوم أضحى ، فدارت الدائرة لمروان على الضحَّاك . فقتِل الضحَّاك ، وقُتل معه عدد كبير من قبائل قيس وأحلافهم .

ولكن العقبة التي تنتظر عبد الرحمن هي عبوره للنهر .. وأنَّى له أن يعبره ، وجنود يوسف له بالمِرصاد ؟

لجأ عبد الرحمن الى الخديعة ، وبدأ يجري مع يوسف مفاوضات ، يسَّرت له عبور النهر ، مع جنده ، بسلامة . وفي غضون ذلك، أعدّ عبد الرحمن للحرب عُدَّتها ، وسهر الليلَ كلَّه على نظام جيشه ، وخطب في أصحابه : « هذا اليوم هو أساس ما يبنى عليه . إمَّا ذلّ الدهر ، وإما عزُّ الدهر . فاصبروا ساعةً فيما لا تشتهون ترتعوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون » .

ولما أصبح يوم الأضحى ، تزاحف القوم ، واقتتلوا قتالاً شديداً . وفي أثناء ذلك القتال المستعر نظرت الجماعة اليمنيّة الى عبد الرحمن على فرسه،وقد نزل حوله أعوانه، فقال بعضهم لبعض :

ـ هـــذا فتى حديث السن تحته جواد سابق ، وما نأمن منه إذا اشتدَّ الأمر علينا ، أن يطير منهزماً على جواده ويتركنا .

فبلغت الكلمة مسامع عبد الرحمن ، فبادر باستدعاء زعيمهم ، فاقبل اليه ، فقال له :

ـ ليس في هـذا المعسكر بغلٌ أوفق من بغلك .. إن هذا الجواد يقلق تحتي ، فلا أقدر على ما أُريد من الرمي من قوسي ، خذ فرسي وهاتِ بغلك !

فاستحيا الرجل ، وقال :

ـ أوَ يثبت الأمير على فرسه ؟

فقال عبد الرحمن :

ـ لا ، والله .

وركب عبد الرحمن البغل. فاطمأنت اليمنية،وحملوا

على العدو.. واشتد القتال، وانتصرت جيوش عبدالرحمن، واخترقت فرسانه الجناح الأيمن لجيش عدوه، وهزمت القلب.

وقد قُتِل في هـذه المعركة عبد الله بن يوسف، وجوشن بن الصميل، وانهزم يوسف. وصبر الصميل قليلاً ثم انهزم. وهُزِم سائر الجيش، وكانت فيهم مقتلة فظيعة.

فهدّأ عبد الرحمن من انتقام اليمنية بقوله:

ـ لا تستأصلوا اليوم شافةَ أعداءٍ ترجون صداقتهم غداً! بل استبقُوهم ليومٍ يكونون فيه معكم.

سار عبد الرحمن حتى دخل قصر قرطبة، وأقبل عسكره فانتهب عسكرَ يوسف، وأكلوا الطعام الذي كان قد أعدّه.

وانتهكت بعض رجال اليمنيّة حرمة منزل يوسف، وسلبوا ونهبوا. فخرجت الى عبد الرحمن زوجة يوسف وابنتاه، وقلن له:

ـ يا ابن عمنا! أحسِنْ كما أحسن الله اليك!

فقال :

ـ حباً وكرامة .

ودعا صاحبَ الصلاة ـ وكان مولىً للفِهريّ ـ فأمره بضمّ جميع النساء الى داره ، وردَّ لهن ما قدر على ردِّه ، وبات هو ليلةً في القصر .

وفي اليوم التالي ، سار الى الجامع ، وخطب خطبة الجمعة ، ووعد الناس بإجراء العدل ، وإقامة القِسطاس المستقيم .

١٣

كرة ثانية وثالثة !

أصبح عبد الرحمن أمير قرطبة !

ولكن ... هل انتهى أمر يوسف والصمّيل اللّذين أركنا الى الفرار ؟

لم ييأس الصميل ويوسف من إعادة الكرّة ... والحرب كرّ وفَرّ ...

ها هما يعاودان جمع رجالهما ، ويمدّانهم بالسلاح ، ويمنّيان نفسيهما بالانتقام من عبد الرحمن .

وهنا ، أخذ كل واحد منهم يتمرّس بما عنده من فنون القتال ، وإحكام الحيلة .

هذا عبد الرحمن ينهض لمساعدة حاكم « ألبيرة » بعد أن علم باقتراب يوسف منها . وهذا يوسف يوصي ابنه بأن يسير الى قرطبة ، من طريقٍ مخالف للطريق الذي يسلكه عبد الرحمن ، وأن يستولي على قرطبة ، وليس فيها إلا حامية قليلة .

ولقد نجح يوسف في خطته ، واستطاع أن يُبعد عبد الرحمن عن قرطبة التي أصبحت لقمة سائغة لجيش ابن يوسف .

وكان على قرطبة «أبو عثمان» في حامية قليلة لم تستطع الصمود ، فحصره العدوُّ في صومعة المسجد ، واستنزله بعهدٍ ألاَّ يقاتله ، وكبَّله ابن يوسف وانطلق به الى أبيه في « البيرة » . وكان يوسف بهذه الخطة يرمي الى إرغام عبد الرحمن على الارتداد الى قرطبة ، ليتسنى له هو أن يستجمع قوّته .

وقد نجحت الخطة . وعاد عبد الرحمن لاسترداد قرطبة ... فاستردَّها ، وسار بعد ذلك الى « البيرة » لا يعرّج على شيء ...

وهنا ، تتمُّ المعجزة ...

لقد شعر يوسف والصميل بضعفهما ، فمالا الى الصلح ، وأرسلا الى عبد الرحمن، وعرضا عليه أن يُسلما له الأمر ، على أن يؤمّنهما في أموالهما ومنازلهما ، وأن يُؤمّن الناس كلّهم . فأجابهما عبد الرحمن ، واصطلحا ...

وعاد عبد الرحمن الى قرطبة ، وقد ركب يوسف عن يمينه ، والصميل عن يساره .

وأحسن الصميل الصحبة ، وأجاد الأدب . وكان عبد الرحمن إذا ذكر الصميل يثني عليه ، ويقول :

ـ لقد صحبني من ألبيرة الى قرطبة، ما مسّت ركبته ركبتي ، ولا تقدّم رأس بغله رأسَ بغلي ، ولا استفهمني في حديث ، ولا افتتح حديثاً بغير أن يُسأل عنه .

وهكذا انتهت الكرّة الثانية بانتصار عبد الرحمن .

ولكن الكرّة الثانية كانت تخفي وراءها كرّة ثالثة :

ذلك، أن جماعة من أصحاب يوسف، أَخذوا يلومونه على تخاذله ، ويوغرون صدره ، ولم يزالوا به حتى انقاد لهم ، واعتزم العودة الى تحكيم السيف .

ولكن الصميل عارضه في أمره ، وقال له حين دعاه :

ـ حَسْبُنا ذلك ! لقد قضينا الذّمام .

ففرّ يوسف من قرطبة تحت ظلام الليل ، ونزل « ماردة » حيث تكمن جماعتُه وأنصاره .

ولما علم عبد الرحمن بهربه أتبعه الخيل ، فلم تقع له على أثر .

واستدعى عبد الرحمن الصميل ، ووبخه توبيخاً شديداً ، وقال له :

ـ أين توجّه يوسف ؟

فقال الصميل :

ـ لا أعلم .

ـ ما كان ليخرج حتى يُعلمك . وقد كان لنا عليك النصح . ومع ذلك ، فإن ولدك معه ... ويجب عليك أن تحضره .

فقال له الصميل وقد تملّكه الغضب :

ـ لو أنـــه تحت قدمي هذه ما رفعتـها لك ، فاصنع ما شئت !

فامر عبد الرحمن بحبسه ...

وفي غضون ذلك أقبل يوسف الى « اشبيلية » ـ وكان واليها عبد الملك المرواني ـ وقـد تضخم عسكره كثيراً ، وصار في نحو عشرين ألفاً ، فزحف الى المرواني باشبيلية.

تقاعس المرواني عن مقابلة خصمه ، رجـاءَ أن تأتيه النجدة ... ولكن يوسف لم يمكّـنه من التقاعس ، وأرغمه على الاشتباك معه في معركة ، والتقيا من ساعتها .

وحين التقيا نزل رجل من موالي « فِهر » معروف بالشجاعة ، فدعـا الى المبارزة ، فلم يجرؤ أحـد على النزول اليه ، فكبُـر ذلك على المرواني ، فالتفت الى ابنه عبد الله وقال له :

ـ هذا أول الشر ، ونحن في قلة . إنزل على عون الله!

وبينما كان عبد الله يهمّ بالنزول ، اعترضه مولىً من مواليهم وقال له :

ـ أنا أكفيك ذلك يا مولاي .

وخرج اليه ، وكانت السماء قد أمطرت مطراً خفيفاً ، فتجاولا ساعةً ، وكلاهما شجاع ، فقضى القدَر أن الرجل زلقت رِجلاه فسقط ، وتحامل عليه المولى ، فقطع رجليه بالسيف ، ثم كبّر القوم ، وحملوا حملة رجل واحد فانهزم يوسف من ساعته ، وتفرّق من معه ...

وبلغت أخبار الانتصار عبد الرحمن ، فعجب لما يفعله القدر .

وظلّ يوسف هائماً على وجهه ، حتى لجأ الى قرية من قرى طليطلة ، ومرّ بعبد الله الأنصاري فقال لأصحابه :

ـ ويحكم ! أُخرجوا بنا نقتله ونريح الدنيا منه ، ونريح الناس من شرّه ، فقد صار رجلاً لا يفكر إلا في الحرب .

فقتله ، وأقبل برأسه على عبد الرحمن فقال :

ـ هذا جزاء الغدر والخيانة ، ما كنتُ أفعل به هذا الفعل ، ولكنه هو الذي فعل بنفسه .

وفي اليوم التالي دخلوا على الصميل في حبسه فوجدوه ميتاً ، وبين يديه كأس خمر .

وكان عبد الرحمن ، كلما تذكّر الصميل ، يردّد جملة جدّه معاوية :

ـ إن لله جنوداً من عسل !

وقدَّر عبد الرحمن ما كان من عبد الملك المرواني وحُسن بلائه في الذود عنه ، فأعلى مكانته ، وأسبغ عليه الهدايا والعطايا .

وهكذا انتهت الكرّة الثالثة والأخيرة ، واستقرّ الأمر لهذا الطريد الشريد .

والآن ، الى أين ؟

١٤

شارلمان ، لم يكن في الحسبان

لقد كانت أمام عبد الرحمن ثورات جانبية ، يقوم بها طامعون وحاسدون ، لكن عبد الرحمن استطاع أن يُطفئها وأن يطهر المُلك من كل طامع وثائر .

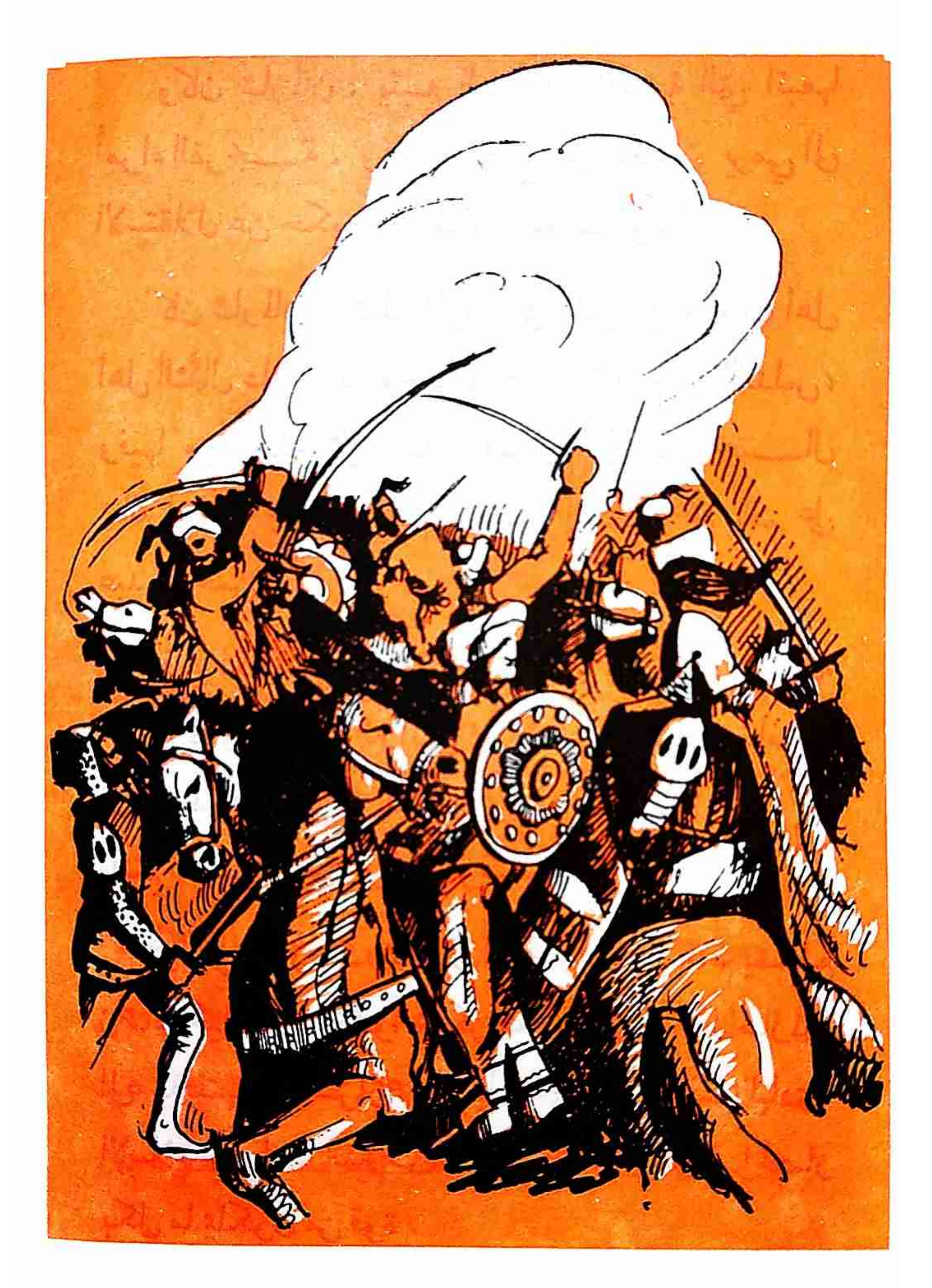
ومن هؤلاء الطامعين من دفعتهم الخيانة الى الالتجاء الى « شارلمان » الذي كان يُعدّ في عصره حامي حمى النصرانية ، وأقوى خصوم الإسلام ، يثيرونه على عبد الرحمن ، ويحثّونه على الزحف إليه ... ويعِدونه بأن النصر له لا محالة .

وكان شارلمان ، يتبع السياسة التقليدية التي اتبعها أُمراء الفرنجـــة ، وهي تشجيع كل عصيان يرمي الى الاستقلال عن حكومة قرطبة وإضعاف قوّتها .

كان شارلمان ، هـذه المرة ، في مامن من حملات أهل أهل الشمال عليه . لقد وجد الفرصة سانحة لغزو الأندلس ، وفيها من يعينه على ذلك ، فقرّر أن يعبر جبـــال « البرانس » بجيش ضخم ، ينضم إليـــه كل ناقم على عبد الرحمن .

في بواكير الربيع سنة ٧٧٧ م. تقدم شارلمان في جيوشه الجرّارة الى جبال « البرانس » واضطر ، بسبب ضخامتها ، أن يشطرها شطرين لعبور ممرات الجبـــال على أن يلتئم الشطران عند أبواب سرقسطة .

ولكن ، لما زحف شارلمان الى أسوار المدينة ، لم يستطع زعماء الخيانة أن يتغلبوا على كراهة المسلمين لدخول شارلمان الى مدينتهم واشمئزازهم من تلك الخيانة المنافية لمبادىء الإسلام وقواعد الشرف ، فعمدوا الى مقاومة الحصار بكل ما يملكون من قوة .



جيوش شارلمان تنهزم

وفي أثناء ذلك ورد على شارلمان نبأ بأن الشماليين قد عادوا الى غزو بلاده ، ووضعوا السيف والنار في أهلها ، فلم يجد شارلمان إزاء هذه الأخبار المزعجة بُدّاً من فكّ الحصار والعودة الى دياره المفجوعة .

ومرّ جيشه من ممرّات مخوفة ، وعلمت بذلك القبائل المناوئة له ، فكمنوا في الأحراج ، والمنعطفات الضيقة ، وانتظروا حتى جاءت المؤخرة الى الوادي ، ومعها المؤن والأحمال ، فانقضّوا عليها وأفنَوْها بأسرها ، وتفرّقوا تحت جناح الظلام،في كل ناحية من نواحي الوادي الجبلية.

وكان فيمن قُتِل ، رولان البطل ، وصديق شارلمان الحميم ، فرثاه شارلمان أحرّ رثاء ، واعتبر فقده أفدح مصيبة حلّت به .

وهكذا انتهت هذه الحملة التي كانت بمخاطرها كافية لهدم بناء عبد الرحمن ومحو سلطانه .

ولكن من كانت عناية الله تحرسه نفّذت له ما يريد وأكثرَ مما يريد .

وإذا العناية لاحظتك عيونها

نم ، فالمخاوف كلّهن أمان

وهكذا استقرّ الأمر لعبد الرحمن الذي خرج وحيداً شريداً من وطنه ، فأصبح مالك الدولة ، وصاحب العرش وحده ، خلق من الفوضى نظاماً ، ومن الدُّويلات المبعثرة دولة محبوكة الأطراف متماسكة البناء . وتألق، من جديد، مجد الأندلس بابن الأمويين الذي تحدّى الموت مرات عديدة ، وطار من المشرق الى المغرب ، ليعيد مجد العرب المتمثّل في بني أُمية .

انتهى الخبر الى المشرق ، حيث يقيم العباسيون ، وعلم الهاشميون بأعجوبة عبد الرحمن،وما كانوا ليصدّقوا الخبر لولا أن توالت عليهم أنباء انتصاراته المتوالية . وتمنى عبد الله بن علي أن يغزو الأندلس على رأس جيش جرّار ، ليقذف بآخر رأس من بني أُمية ... رأس عبد الرحمن ! ولكنه ، بدلاً من أن يفعل ذلك ، تمرّد على أبي جعفر المنصور طمعاً بالخلافة لنفسه ، فكان مصيره مصيرَ من أعدمهم من الأمويين . لقد أهلكه أبو جعفر .

واستراح عبد الرحمن ، من بعد هذا العناء ، على عرش الأندلس ، وحفِـل قصر « قرطبة » ببسمته الزاهرة وهو يستقبل الوفود المهنئة والشعراء الذين قدِموا إليه لينشدوه قصائد المدح . فدوّت قصائد الشعر العربي الأصيل في رحاب القصر ، تصف المجد الأموي في ربوع الأندلس كما وصفته في العهود السابقة في مرابع غوطة دمشق الفيحاء .

١٥

غنائيات عبد الرحمن

والآن، هل تُنسيه أرضُ الأندلس التي شاد فيها دولته الجديدة ، أرضَ آبائه وأجداده ، في ربوع الشام ؟

إن تلك الربوع عزيزةٌ على نفسه ، عزيزةٌ بذكرياتها ، وتُربتها وأمجادها . . .

هل يترك التفكير فيها إلى الأبد ؟

هل يصرف عينيه عن التلفُّت إلى مرابعها الخالدة ؟

هل يُثني قلبَه عنها ، ويمنع حنينه إليها ؟

إن حبّ الوطن غلاَّب !..

لقد فكّـر عبد الرحمن في الرحيل إلى الشام لانتزاعها من بني العبّـاس ، ولكن الثورات المتعاقبة ، والمشاغل الكثيرة حالت بينه وبين ذلك .

ولكن عبد الرحمن ، الذي ألحّت عليـــه الثورات العاصفة والمصائب التي حلّـت بقومه وسارت بها الركبان، كل ذلك ترك في نفسه أثرَين مختلفين : ففي جانب من نفسه كانت عواطف الحقد والكراهية تغلي كالبركان ، وفي جانب آخر كانت عواطف الحنين والشوق إلى الوطن الحبيب في الشام تغمر نفسه .

وجدير بمثل هذه العواطف المتضاربة أن تجعل من صاحبها شاعراً يتغنى بالحنين والألم والشقاء .

ومن رقيق شعره هـذه الأبيات التي أرسلها إلى أُخته بالشام :

أيهـــا الراكبُ الميمِّـم أرضي
إقْـرَ من بعضيَ السلامَ لبعضي
إنـ جسمي ، كما تراه ، بأرضٍ
وفؤادي ومالكيهِ بأرضِ

قـــدَّر البينُ بيننا ، فافترقْنا
وطوى البينُ عن جفونيَ غَمْضي
قـــد قضى الدهر بالفراق علينا
فعسى باجتماعنا ، سوف يقضي

وحين أبصر عبد الرحمن نخلةً تهتزُّ في قصره تذكَّر نشأته في بلاد النخيل ، وتمثَّلت له أوقات هنائه ، ومجالس أصحابه ، وملاعب شبابه ، فحنَّ إلى تلك العهود الماضية ، وأنشد على الفور :

تبدَّتْ لنــــا ، وسْط الرصافة ، نخلةٌ
تناءتْ بأرضِ الغرب ، عن بلد النَّخلِ
فقلتُ : شبيهي في التغرُّبِ والنَّوى
وطول ابتعادي عن بلادي وعن أهلي !
« نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيهـــا غريبةٌ
فمثْلكِ في الإقصاءِ والمنتأَى ، مثلي »

ويبدو أن مرأى النخل كان أكثر ما يهيجه ويحرِّك حنينه إلى وطنه :

يا نخـــل ! أنتِ فريدةٌ مثلي

في الأرض ، نائيةٌ عن الأهلِ

تبكي - وهـل تبكي مكمّـمةٌ

عجماءُ ، لم تُجْبَـلْ على جَبـلِ -

ولو أنّـها عقلتْ ، إذنْ ، لبكتْ

ماءَ الفراتِ ، ومنبتَ النخلِ

لكنهـــا حُرِمَتْ ، وأخرجني

بُغْـضي بني العباس عن أهلي

وقد يسمع عبد الرحمن بعض أعوانه الذين أعانوه على الاستيلاء على المُـلك يمنّـون عليه بمساعدتهم إيّـاه ، فيقول أحدهم :

- لولا أنا ما توّصل لهذا الملك !

ويقول آخر :

- سعدُه أعانه ، لا عقلُـه وتدبيره .

فيغضب عبد الرحمن لهذا الإتّـهام ، وتأخـذه العزة والكبرياء ، فيقول :

لا يُلْفَ مُمْتَنٌّ علينا ، قائـــل : ـ

« لولاي ما ملك الأنامَ الداخلُ »

إن الملوك مع الزمان كواكب

نجمٌ يُطالعنا ، ونجمٌ آفِـــل

والحزمُ كلُّ الحزم ألاَّ يغفلوا

أيروم تدبيرَ البريَّـةِ غافِل ؟

ويقول قومٌ : « سعدُه ، لا عقلُـه »

خير السعادة ما حماها العاقـــل

وهكذا عبَّـر شعره عما كان يعتلج في نفسه ...

إن هذا الملك العريض كله ما كان ليطفىء هـذا الحنين المتوقد إلى وطنه وأهله .



عبد الرحمن مع احدى الجواري

١٦

الشمس في المغيب

لم يكن بين خروج عبد الرحمن إلى الأندلس على ذلك المركب الصغير وبين الأجل الذي وافاه إلا أربع وثلاثون سنة .. وإنه لعمرٌ طويل إذا قيس بأيام الحكم عند غيره من الملوك والخلفاء ، قضاه في استخلاص الملك له وتوطيده وإخماد الفتن والثورات التي كانت تهبُّ حوله .

ولكنه ، في أوقات الهدوء ، كان ينصرف الى قصره ، متمتعةً بأسباب الحياة ، ملتفتاً إلى تعمير « قرطبة » بحيث تكون حاضرةً زاهرة ، لائقة بأمجاد الأُمويين .

لقد كان محباً لقرطبة حبَّه لأرض الشام،وفخوراً بان تكون حاضرة ملكه الجديدة . لذلك غمرها بالأموال ونشَّط فيها حركة العمران وعمل على تجميلها وتنضير ربوعها . فبنى فيها « الرصافة » تشبّهاً برصافة جدّه « هشام » واتخذ له فيها قصراً رفيع العماد عالي الشرفات ، يرى المطلُّ من ذراه أبهى المناظر على مسافات شاسعة ...

وأنشأ حوله الحدائق الجميلة والبساتين المزهرة ونثر الشجر المورق والدوح الباسق وأجرى الجداول الرقراقة في نواحيها، كما نقل إليها كلَّ غرسة غريبة وشجرة كريمة،حتى باتت تباهي أجمل المتنزّهات في الأرض . هناك غرس بيده نخلة أحضرها من الشام ليستعيد ذكرى نشأته ومدرج طفولته فكانت أولَ نخلة غرست في أرض اسبانيا .

وإذا كانت دمشق تزهو بجامعها الأُمويّ الكبير،فلماذا لا يقيم في قرطبة جامعاً يضاهيه بنياناً وفخامة وجمالاً ؟...

بنى المسجد الجامع ، وأنفق فيه ثمانين ألف دينار . ولكن القدر لم يمهله حتى يرى ما شيَّدت يداه .

وفي بنائه هذا الجامع يقول أحد الشعراء :

وأبرزَ في ذات الإله ووجهِه
ثمانين ألفاً من لُجَيْنٍ وعسجدِ

وأنفقَها في مسجدٍ زانه التُّقى
وقرَّ بِه دينُ النبيِّ محمَّد

ترى الذهبَ الوهَّاجَ بين سُموكه
يلوح كلمح البارقِ المتوقد

كما أسرع في استحداث المنشآت الإصلاحية ، فأعاد تمهيد الطرق الرومانية تيسيراً للمواصلات ، ونظَّم البريد السريع ، وبنى داراً لصكّ العملة .

فكان عبد الرحمن بذلك مثالاً يُحتذى في بناء السِّلم كما كان مثالاً يُحتذى في كسب الحرب .

وبينما كان في يومه الأخير قائماً يشرف على إنجاز بناء جامع قرطبة الكبير شعر بانحلال قوَّته وضعف عزيمته ، فتحامل على نفسه وانتقل إلى قصره ، وهو يحسُّ بقرب يومه .

وفي مساء يوم من أيام ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ. غابت

هـذه الشمس إلى الأبـد واستراح ذلك الجسد الذي تعب في مراد نفسه الكبيرة .

وإذا كانت النفوس كباراً

تعبتْ في مرادها الأجسام

وكان الذين عاينوا وجهه ، بعد الموت ، يرون ملامح الرضا تغمر وجهه ، ولكن وراء هـذه الملامح ... كان هناك أسف عميق ، لأن عبـد الرحمن لم يتسنَّ له أن يحقق آماله كلّـها ...

فهرس الكتاب

الفصل	العنوان	الصفحة

النَاجحُونْ

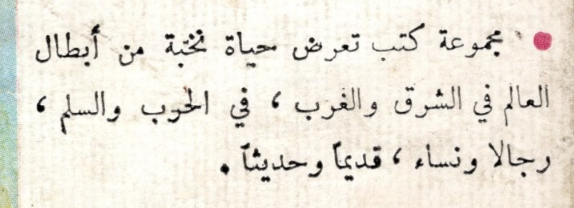
سلسلة كتب للفتيان والفتيات

زنوبيا	: ملكة تدمر
خالد بن الوليد	: بطل اليرموك
نابوليون بونابرت	: الذي غيَّر وجه أوروبا
بتهوفن	: أبو السمفونيات
طارق بن زياد	: فاتح الأندلس
هنيبعل	: بطل قرطاجة
كولومبوس	: مكتشف أميركا
مدام كوري	: مكتشفة الراديوم
صلاح الدين الأيوبي	: بطل حطّين
عبد الرحمن الداخل	: صقر قريش
غاندي	: أبو الهند
أديسون	: الذي أضاء العالم
شكسبير	: شاعر الإنسانية
المتنبي	: شاعر العرب
ابن بطوطة	: رحّالة العرب
هيلين كيلر	: المرأة المعجزة
الاسكندر	: فاتح العالم القديم
شجرة الدر	: أول ملكة في الاسلام
باستور	: عدو الجراثيم
ليوناردو دي فنشي	: الرسام الخالد

مطابع اوفست كونور وطرزافير
بيروت - تلفون ٣١١٣٢٩



الناجحون



- مجموعة كتب تعرض حياة نخبة من أبطال العالم في الشرق والغرب ، في الحروب والسلم ، رجالا ونساء ، قديماً وحديثاً .

- تقدمها دار العلم للملايين الى الفتيان والفتيات الذين يريدون أن ينجحوا في الحياة .

- يقول المثل : ان النجاح يجر النجاح فتعرّف إذن الى الناجحين يسهل عليك تحقيق النجاح .

- أشرف على وضع هذه الكتب عدد من رجال التربية وعلم النفس في العالم العربي لتكون مدرسة حية لفتيان اليوم ورجال الغد .

الثمن : ٣٠٠ ق . ل . دار العلم للملايين

بيروت